

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

حاء

حاء

مقالات

بثينة العيسى

2016



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: آب/أغسطس 2016 م – 1437 هـ
الطبعة الثانية: تشرين الأول/أكتوبر 2016 م – 1438 هـ

ردمك	9786140228610

جميع الحقوق محفوظة للناشر



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

لوحة الغلاف: **فريد عبدال (الكويت)**
تصميم الغلاف: **محمد سالم (الكويت)**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

ونحن نحب الحياة اذا ما استطعنا إليها سبيلاً

محمود درويش

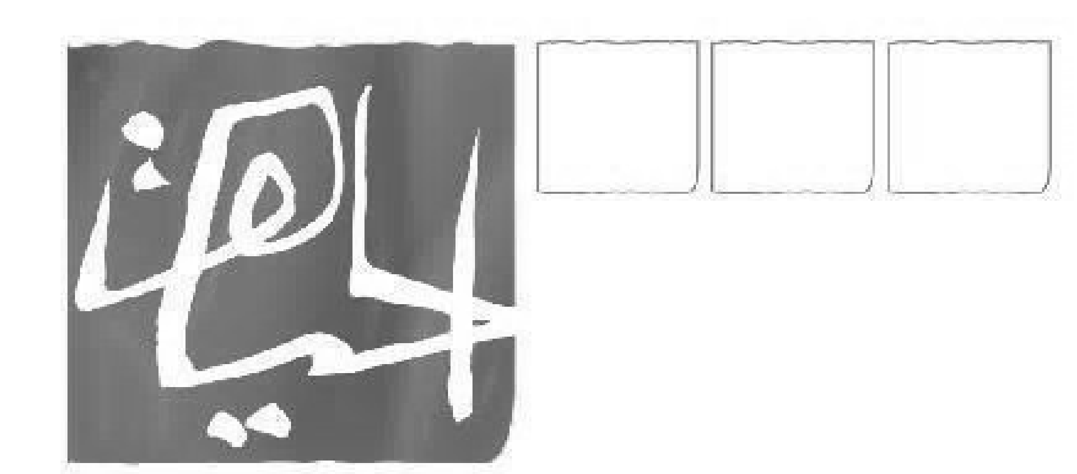
إلى داليا، وأجنحتها

جميع المقالات المنشورة في هذا الكتاب،

نشرت في مجلة الصدة الإماراتية، وقد أجريت عليها بعض التعديلات على الصياغة

(2016-2012).

الحيَاة





خذ كلمة تحبّها

أريد أن أتهجَّأ الفرح.

فاء، راء، حاء.

فاء تعني فورة، راء تعني رحلة، حاء تعني حُب.

هذا مجرّد اجتهاد، قد يكون الأمرُ على هذا النحو:

فاء تعني فيْض، راء تعني روح، حاء تعني حيْ.

خُذ كلمةً تحبّها، كلمة أثيرة لديْك، كلمة يميّزها الآخرون في لسانك وفي عينيك، كلمةٌ بينك وبينها علاقة حُب، تنتشرُ عنكما الشائعات، أنت وكلمتك. خذ كلمتك هذه، ضعها على الورقة.

خذ الكلمة وأعِد تفكيكها إلى حروفها، ومن كلّ حرف استخرج كلمات أخرى؛ أطفال كلمات. سيصير عندك قبيلة من الكلماتِ الصديقة، الكلمات التي تخصّك، التي يميّزها الآخرون في لسانك وفي عينيْك.

خذ كلمة حُب؛ فكّكها وتهجّأ حروفها. الحاءُ حنوٌ والباءُ بأس. هل

أصبحت تفهم الحبّ أكثر؟ هل ترى طبيعته المزدوجة، القوّتين المتصارعين في أعماقه، الحنوَّ والبأس؟

هذا مجرد اجتهاد، إنه اجتهادٌ يخصني. وأنت قد تفكّك الحبّ إلى كلمتين مختلفتين؛ الحاء حربٌ والباءُ بطش؟ هذا تعريف عنيف. لنحاول مرة أخرى: الحاءُ حقٌ والباء بعث. الحاءُ حِسٌ والباءُ بُد. يمكننا أن نستمر إلى الأبد.

الكلمةُ التي ستنبتُ من كلّ حرف، هي كلمةٌ أخرى تخصّك. كلمة تشبهك، كلمة هي صديقتك وحبيبتك، تسيلُ تحت جلدك وتتصرّف في قلبك كما لو كانت سيّدة المكان.

لا أستطيع أن أفسّر علاقتي باللغة، عندما يسألني أحدٌ عما يسمونه «الحصيلة اللغوية»: «من أين تأتين بهذه اللغة وكيف تكوّنت؟». أجده سؤالاً مجحفًا؛ لأنه يتعاطى مع اللغة كما لو كانت جمادًا. الكلماتُ بالنسبة لي كائناتٌ حية، وأنا أقيمُ معها علاقات؛ حب وبغض، صداقة وعداوة، قد نكون أصدقاء مراسلة أو عشاق أو أعداء أو زملاء في السّكن. في الحالات كلها، وقبل أن أقرّر حتى شكل علاقتي مع الكلمة، أحتاج أن أنصت طويلا لما تقوله، لقبيلة الدلالات التي تستحضرها، لموسيقاها، لطعمها في لساني، لوقعها في قلبي، أنصتُ بما يكفي ثم أقرّر: هذه الكلمة صديقتي، أو: أنا لست متناغمة مع هذه الكلمة.

كلمة «زخَّ» مثلا، لا أطيقها، لا أحتمل صوتها في أذني ولا وقعها في قلبي، في المقابل، أحبّ حرف الشين في بداية الكلمة؛ في الشِّعر والشَّجر والشَّدو، وحتى في كلمات لئيمة، مثل كلمة شر، مثل كلمة شج، مثل كلمة شح.

أحاول أن أتذوق كل حرفٍ على حدة، تفتنني قدرة الحرف على توليد الكلمات. وأعرفُ بأنه مجرد صوت، تردّدات وذبذات تنتشرُ في الفضاء، إلا أنَّ في وسعه أن يعكس الفكرة ويصنع الشعور. هل تساءلتَ مرة، لماذا كلما لحقت الهاء بالجيم، قسى المعنى؟ (جهد، جهل، جهم، جهش، جهنم، جهبذ..). هل تساءلت من أين لحرف السين كل هذه القدرة على السيلان، ولماذا يشبه السؤال والسلوى؟

أنا لا أفهمُ ما يحدث هناك تحديدًا، كيف يمكنك أن تضع صوتًا بجانب آخر وتشهد ولادة كلمة، وفي الكلمة ترى ألف كلمة أخرى.

أريدُ أن أتهجأ الشّجن. الشين شِعر، الجيمُ جُب، النون نوى.

أريد أن أتهجأ الوردة. الواو وُد. الراء رقة. الدالُ دليل، التاءُ المربوطة هي تلويحُ اليد الأخيرة.

أريد أن أتهجأ الحنين. الحاءُ حرقة، النون نبع، الياءُ يد.

أريد أن أمضي أيامي هكذا، أستخرج من كل كلمة، كلمات، أفكّك بها

شفرة الكون، وأفهم العالم.

فسيلة القيامة

أعرفُ بأنّ من العبثِ أن تغرسَ فسيلةً عند قيامة الساعة، ولكنّ هذا هو ما أنوي فِعله.

سوف أستمرّ في غرس الفسائل وأستمهلُ نهاية العالم دقائق أخرى. أعرفُ بأن هذا غير منطقيّ، ومع ذلك يبدو الجنون وكأنه الأمر الوحيد المعقول؛ لأنَّ الجنون في عالمٍ مجنون هو عودٌ إلى العقل.

إن الشيء المنطقيّ الوحيد الذي تبقى لنا هو مخالفة المنطق، وأعرفُ بأنه صعبٌ جدًا، أن تستيقظ بعد ليلة قصفِ غزة لتقرأ قصيدة، أو أن تراجع تقريرًا عن خمسين مليون لاجئ حول العالم، ثمّ تسقي أصص الريحان على نافذتك، أن يصلك مقطع فيديو لطفل سوري يردّد «والله ما أكلنا شي من الصّبح « لتجلس على مائدتك العامرة وتبسمل وتأكل. نعم أعرفُ بأن الأمر لا يطاق، ولكن ما أحاول قوله، ما أريدُ فعله، هو أن أبرهن بأن الحياة، مجرّد الحياة، في ذاتها بطولة، على رأي منيف.

أنا كاتبة. كل ما أقوم به، أقومُ به من خلال اللغة. فسيلتي هي رواية، أو مقالةٍ كهذه تمامًا، ولكلّ إنسان فسيلته. أعرفُ بأن الأخبار ملطخة بالموتِ ورائحة البارود، ولكنني أريد من الفنان أن يتمّ لوحته، ومن القارئ أن ينهي الكتاب في يده، ومن العاشقِ أن يقبّل حبيبته، ومن الأم أن تضمّ صغارها، ومن الفراشة أن ترفرفَ، ومن الشجرة أن تخضرّ، ومن الطبيب أن يواصل البحث عن علاج للسرطان، ومن المعماري أن يدشن بناءً جديدًا يجمع الناس تحت سقفِ محبّتِه.

أريد أن نستمر في غرس الفسائل، لكيلا تتحوّل الحياة إلى مشروع وجود مستحيل تحت طائلة الفقد والزوال. أريد أن تكون ممارسة الحياة، بالشكل البسيط والعاديّ، فعل مقاومة.. ألا نفقد قدرتنا على العيْش في زمنِ الموت، ألا نفقد قدرتنا على المنح والخلقِ، أن نوجد على هذا العالم لأن «الحياة بداهة» كما قال درويش. الحياة بداهة، وبطولة، وفعل مقاومة، ولدينا فسائل كثيرة تنتظر أن تغرس، فسائل صغيرة وغير مؤثرة، ولكنها خضراء كما ينبغي، خضراء بالقدر الكافي.

أنا مبشرة نعم

أنا مبشرة نعم.

أبشّر بالكتبِ التي تجعلُ الأسئلة تتوهج. الكتبُ التي تقذفك، بلا رحمة، في القلقِ والأرقِ وحدّةِ السؤال. أبشّر بالكتب التي تنتزع منك طمأنينة الوهم، أبشّر بالكتب التي تجعلك ترتاب؛ ماذا لو كان كل شيء اعتقدته، تعلمته في المدرسة، أخبرني به أبواي، هو محض مغالطة للحقيقة؟ ما الحقيقة؟ أبشر بالكتب التي تدعو إلى الشكّ، لا اليقين. أنا مبشّرة نعم.

أبشّر بالقصائدِ التي تطعنُ القلب، وترمّمُ وجودنا الناقص. القصائد التي تنفذُ إلى كبدك وتغتسلُ بدمك. أبشّر بجدارية محمود درويش، وكراكيب سوزان عليوان، وغبار وديع سعادة، وقبر قاسم حداد، أبشر بدستور الإيمان لنزيه أبو عفش ونصوص أخرى كثيرة.. لا أعرفُ كيف يمكن أن يبدو العالم من دونها. كيف يتوضأ القلب بسوى الشعر؟ إنني أتساءل وأمعنُ في التبشير. أنا مبشّرة نعم.

أبشر بالمقاهي التي تُفتتح على البحر. أبشر بجمال محبة الناس من خلال إطعامهم، بالالتفاف حول المائدة مع الأصدقاء، التحاور حول الوجود والعدم، على فنجانِ قهوةٍ تركيّة. أنا مُبشّرة نعم.

أبشّر بالعشبِ الذي ينبت بين البلاط. أمجد تلك العشبة الرقيقة، التي تدافع بكل قواها الناعمة عن حقها في الحياة، التي تجرح وجه الجدار وتخرج خضراء من غير سوء. ألتقط لها صورًا وأطلقها في مواقع التواصل الاجتماعي، أقول للناسِ انظروا للعشبة التي تجرح الجدار، انظروا وحسب! أنا مبشرة نعم.

أبشّر بالأزهار الجديدة في الحديقة. أبشر بالمتجر الصغير ذي المشغولات اليدوية. أبشر بالغرباء والمجانين والشعراء والمؤلفة قلوبهم. أبشر بالأرغفة الدافئة والحساسين وباقات الأقحوان. أبشر بالفيلم الذي يزلزلُ الأرض تحت قدمي ويجعلني أنفذ، بقوةٍ، إلى حياة إنسان آخر.

أبشر بالشجر، بالأعشاش، بالعصافير، بالشعراء، بالقطط المتصعلكة في الشوارع، بالأصص، بالأصدقاء، بالصدى. أبشر بالمطر، بالحلم، بالعشبِ، أبشر بالغزالة، والسلاحف البحرية. أبشرُ بجمال العالمِ حيثما وجدته.

أنا مبشرة نعم، الجمال عندي عقيدة.

أريد أن أدافع عن سخافةِ الحياة

لا يهم ما يقال، فالدّفاع عن السخافةِ عملٌ بطوليٌّ وجدير؛ إنه ينقذُ العالم.

سأنضمُّ إلى معسكر السّخافة وأدافع عن التافه والمضحك، سأدافع عن كلّ ما يجعل الحياة أقل أهمية من أن تؤخذ بجدية، سأدافع، باختصار شديد، عما يجعل الحياة ممكنة في عالمٍ لا يُحتمل.

أريد أن أكتب دفاعًا عن النكاتِ، ومواقع المراسلة، وعادة جمع صور «صن توب». وأريد، وبشدّة، أن أؤكد على ضرورة أن تستمرّ المكتبات بوضع الملصقات على الرفّ الأمامي أمام «الكاشير»، وليكن هناك وجوه صفراء تضحك، وقلوبٌ حمراء تتوهّج. أريدُ أن أؤكد على ضرورة أن يرتدي الإنسان جوربين غير متطابقين في أيّام العطل. أحتاج أن أقول للعالم، بأن إحصاء السعرات الحرارية في قطعة البراوني هو تصرّف متعسّف، وأن مشاهدة «

البحث عن نيمو» ثلاثة مراتٍ متواصلة في ليلةِ الخميس ليس خيارًا سيئًا البتة، وأن متابعة أخبار العالم ستقضي عليك.

أريدُ أن أتخفَّفَ من الحياة لكي تصير الحياة ممكنة، أريدُ أن أتخفّف من الحياة لكي أحيا. أريدُ أن أقول لهذا العالم كن أقل، كن أخف، كن أبسط. أريدُ أن أطالب بحقوقنا نحن المرهقين بالعيشِ والمنشغلين بفهمِ العالم ومنطقة خبالهِ. أريد أن أطالب بحقّنا في أن نرقص كالأغبياءِ، وأن نلعب لعبة الكراسي، وأن نتصعلك في الأسواق بلا جدوى. يجب أن ندافع عن التوافه التي تكادُ تنقرض في هذا العالم المختنق بجديّته.

يجب أن ندافع عن الأغنيات العبثية، مثل «يا لابس الثوب المنقط» وعندما تمضي قرابة الساعة في اختيار كوب قهوة، فهذا ليس مضيعةً للوقت. نحتاج أن ندافع عن حقنا باجتراح الفوضى، كأن تأكل «البوب كورن» على الفطور و»البان كيك» على العشاء. على هامش كتابِ «العنف والمقدّس» لرينيه جيرار، جرب أن ترسم وجهًا يمد لسانه، يسخر من تجهّم الأفكار وثقلها.

يجب أن ندافع عن سخافة الحياة لأنها ما فتأت تنأى وتصيرُ أكثر تعذرًا. تريدُ أن تقبض على الحياة بيديك؟ أطلقها حرّة. دعها تركضُ في جنبات المكان مثل قطة شوارع. دعِ الحياة تحيا قبل أن تقتلنا الجرائد ووكالات الأنباء والمنظمات الإرهابية والأجندات الخارجية والمنظر الكئيب للمزهريات الفارغة وسلال الغسيل الممتلئة.

يجب أن ندافع عن السخافة، يجب أن نؤسس جمعية إنسانية للدفاع عن الأشياء الصغيرة، أن نصمم محميات لمؤلفي النكاتِ مثلاً، وللاعبي الخفة، ولكل المقاطع المضحكة على «اليوتيوب».

يجب أن ندافع عن سخافةِ الحياة؛ عن حق الإنسان في أن يجيء غير منتبه. نحتاج معرفةً أقل وخيارات أبسط. أن يشعر الإنسان الذي يخرج من بيته لأجل شراء بيجاما شتوية بأنه يخرج في مهمة نبيلة، مهمة الحفاظ على إنسانيته من الانمساخ من فرط التلوث بأخبار العالم.

اخرج الآن، اشتر بيجاما قطنية زرقاء. جرّب أن ترسم وجهًا مضحكًا على ثمرة ليمون، جرّب أن تتخلف عن مناسبة اجتماعية ثقيلة لأجل أن تمارس نط الحبل، جرّب أن تخرج في الصقيع لكي تنفخ على الزجاج البارد وترسم على البخار المتكثف قلوبًا وحروفًا.

منذ زمنٍ طويل، ممعن في القتل والتشريدِ والتدميرِ، منذ تفشي التشظي الطائفي والانقساماتِ الكثيرة التي أحسّ بها بداخلي وأنا أنظر إلى العالم مشدوهةً وأتساءل، من سرقه؟ أين ذهبت سخافة الأشياء؟ لماذا أصبح كل شيء كثيفًا وممتلئًا؟ من يقدر على العيش تحت وطأة وخزاتِ ضميره لأنه «لم يُقتَل بعد»؟

لقد أصبحت الحياة شيئا أكثر جدية وتماسكًا وثقلاً من كتب بول ريكور ورينيه جيرار وجاك دريدا ممتزجة مع بعضها البعض بعد وضعها في خلاط

كهربائي. صارت شيئًا لا يفهم، ولا معنى له، وأنا أريد حياة أبسط وأسخف، أريد أن أغني «يا لابس الثوب المنقط» وأن أحصي النقاط التسع في اسمي دون أن أشعر بالفاجعة..

السنديانة التي رتّبت أفكاري

السيّدة التي رتّبتني، أعادت صياغتي بالكاملِ، في دقائق قليلة نسفت كل أفكاري الساذجة والمسبقة عن العمل التطوّعي. لا أعرف اسمها، فاتني أن أسألها عنه (وهذا تقصيرٌ معيبٌ منّي)، ولكنني أتذكرها كشجرة، قميصها أخضر وجذعها متين وملامحها دافئة، أشير إليها دائمًا – في حديثي وأفكاري – بصفتها «السنديانة». وهذه قصّة لقائي بها..

كنا في زيارة لأحد مخيّمات اللاجئين السوريين في بقاع لبنان، التابعة لحملة ليان، وقوفًا في منتصفِ المخيّم نتعرّف على الأطفال والنساء الذين خرجوا لاستقبالنا. أحد الأولاد شدّني من كمّي وقال: أمّي تدعوكِ إلى خيمتها. أول ما تبادر إلى ذهني، أنها سيدة محتاجة وتريدُ أن تخبرني عن مشاكلها لعلّي أقدرُ على المساعدة. عندما وصلتُ إلى الخيمة وجدتها جالسة في وسطِ المكان، منشغلة في إعداد الكوسا المحشية، وتذمّرت لأن الكوسا كبيرة جدًا، وهي تفضّلها صغيرة ورقيقة. دعتني للجلوسِ وأصرّت أن أشرب فنجان قهوة،

أخبرتها – وكنتُ أعني تمامًا ما أقول – بأنني شربتُ حتى اللحظة ثلاثين فنجان قهوة في ثلاثين خيمة، وأن اللاجئ السوري يدهشني بكرمه في كل مرة يقدّم لي فيها القهوة والشاي والميلو، رغم فقره وجوعِه. اعتذرتُ.. لا أستطيع أن أشرب فنجانًا آخر.

السنديانة لم تقبل اعتذاري. والحقيقة أنها طلبت بشيءٍ من الرّجاء أن أشرب من قهوتها أيضًا، وهي تؤكد لي بأن جميع جيرانها وصديقاتها يشهدن بأن «قهوتها طيبة»، وأن عليّ أن أجرّبها. تساءلتُ إن كان شرب فنجان قهوةٍ من شأنه أن يسعد هذه السيدة السورية حقًا، هل الأمر فعلا بهذه الأهمية؟ انهمكت السيدة في إعداد القهوة، وهي تتحدث في أمور عادية، الغلاء، حياتهم السابقة، بناتها، وآلام ظهرها. الأشياء المعتادة، الأشياء نفسها التي يمكن أن تقولها امرأة خليجية جالسة تحت السنترال في فيلا من ثلاثة أدوار.

لم تكن السنديانة تريدُ شيئًا، باستثناء أن أسمح لها بأن تغدقني بالضيافة الشامية السخية، وأن أشرب من قهوتها. والتي هي كما ذكرتْ، «قهوة طيبة» بشهادة الجميع، وأنا من بينهم. اعتذرت لأن الفناجين ليست «قدّ المقام» وهي تسكبُ القهوة وتتضوّع في أنحاء الخيمة تلك الرائحة الأخاذة.

لم تطلب مني شيئًا آخر. لم تكن تريد شيئًا آخر! تحدثنا لربع ساعة في كلّ الأمور، وتلاشى الواقع تمامًا – الخيمة، الثياب المعلقة على الحبل، الأغطية المتراكمة في الزاوية، رائحة المجارير في الخارج، التشرّد، المنفى،

اللجوء، الجرح السوري. اختفى كلّ شيء، ولم أرغب بمغادرة تلك الخيمة، لولا أن برنامج الحملة اقتضى ذلك. رجتني السيّدة أن أعود بعد ساعتين لأتذوّق الكوسا المحشية التي تعدّها، كان بودّي، لم أعد. لم تسنح الفرصة للعودة. احتضنتها لكي أشكرها على عشر دقائق استثنائية رأيتُ فيها امرأة عظيمة تتفوق على الواقِع بكل البهاء الممكن.

قبل أن أغادر، قالت لي تلك العبارة التي أحملها في داخلي مثل تميمة: شكراً لأنك شربتِ قهوتي، وجلستِ معي، وتحدثنا..

«على الأقل الواحد يحس حالو بني آدم!»

ضحكة أم سعيد؛ دموع مجدي

رغم مرور كل ذلك الوقت، يصعب أن يمرَّ بي يومٌ دون أن أتذكّر ما حدث في تلك الخيمة. خيمة أم سعيد، في أحد مخيّمات حملة ليان لإغاثة اللاجئين السوريين، باستثناء أنّ أم سعيد لم تكن سورية، كانت سيدة فلسطينية في الثانية والأربعين من عُمرها، من مخيّم اليرموك في سوريا. سألتها، منذ متى وأنتِ تعيشين في مخيّم اليرموك؟ فقالت منذ 42 سنة، منذ عُمري كلّه. لم يخطر لي أن ألتقي بشخصٍ صار لاجئًا مرّتين، وبصفتين اثنتين، رغم أنه الشخص نفسه.

بشرة سمراء، خدٌ متغضّن، ابتسامة مرهقة تطعنُ الحزن ويطعنها ذهابًا وإيابًا منذ فلسطين وحتى سوريا، سألتُها عما نقرأه ونسمعه بخصوص التجويع لسكّان مخيّم اليرموك، هل الأمر فعلاً بهذا السوء؟ ضحكت وقالت: كان وزني كيلو. وهي تشيرُ إلى هزالها وتغضنات جلدها وتضحك: الحمد لله بدون رجيم. ثمّ استطردت: أكلنا «عشب وكلاب وبْساس»، وأشارت إلى ولديْها الجالسين

في الزاوية. «أولادي أيضا».. وضحكت. ثمّ رفعت يديها أمامنا لتشير إلى حروق الشمس على ظاهر يدها وعلقت على اسمرارها: وهذا بدون «تان» الحمد لله.

أم سعيد محترفة نكتة، تتفوّق على الفجيعة من خلال الضحكِ عليها. تصعدُ عاليًا وتطلّ على نكبتها من شاهق، كمّ الضحكات التي تفجرت من حكايا أكل القطط والعشب والكلاب كانت الموقف الأكثر سوريالية. سألتها: كيف خرجتم من الحصار؟ قالت بأنها قد سُمح لها بالمغادرة هي وأولادها الأربعة بعد تعرضهم للإصابة؛ وكأن المرء يتمنى في أوضاعٍ مثل تلك، أن يمرضَ أو أن تلحق به إعاقة لكي ينجو من الموتِ جوعًا. انفصلت أم سعيد عن زوجها، ما زال أبو سعيد مع المحاصرين في مخيّم اليرموك؛ جغرافيا التجويع المنهجي والحصار الفاشي؛ لأنه لم يكن محظوظًا بما يكفي لكي «يمرض» أو «يصاب» فينجو.

في تلك اللحظة دخل أصغر أولاد أم سعيد، طفلٌ يبدو في سادسته، اسمه «مجد الدين» ويدعى «مجدي». بدا مستغربًا من وجود زوّار، فبدأت أم سعيد، بروحها الوثابة أبدًا نحو النكتة، بمناكفته؛ جايين ياخذونك على مخيم اليرموك. جايين يرجعوك! هزّ مجدي رأسه رفضًا وهو يضحك. ما بدك ترجع؟ لا. يبتسم. ما بدك تروح لصحابك؟ لا. يبتسم. ما اشتقت لأصحابك؟ لا.. حتى ذلك الحين كنا نضحك على المناكفةِ بين الأم وصغيرها، حتى اللحظة التي تفجّرت فيها الدموع من عيني مجدي، عندما سألته أم سعيد: ما اشتقت

لأبوك؟ اختنق وجهه بدموعه وهو يتذكر والده، محاصرًا بجوعه، منذ نكبته الفلسطينية وحتى تغريبته السورية.

لا يمرُّ يومٌ إلا وأنا أتذكر دموع الصبيّ الذي يخافُ أن يعود إلى الكابوس الذي تُرك فيه والده، بدا وكأن وجوده في خيمةٍ لا تتجاوز مساحتها الخمسة أمتار أفضل ألف مرّة من القصف وأكل القطط. لا أعرف ماذا الذي يمكنُ فعله لمجدي، لكي تصبح الحياة أقل كابوسية. لكي نعيد إليه شيئا هزيلا من الأمل بأن الحياة ما زالت ممكنة. سألناه عما يشتهيه، قال بأنه يريد «طابة» و»ساندويتش بطاطا».. في اليوم التالي زرناه، مع «الطابة» و»السندويتش». أعتقدُ بأن ما فعلناهُ هزيلٌ ومثير للشفقة، لم يكلفنا شيئًا ولكنه على الأقل، ابتسم في نهاية اليوم. حتى ابتسامتهُ المجانية والصادقة بسبب حصوله على لعبة وطعام، تدميني في باطني. الفجيعة مترامية الأطراف وأكبر منا بكثير، ومجدي .. مجدي الصغير لم يطلب شيئًا. يريد أن يأكل، أن يلعب، أن يرى والده، أن يكون الطفل الذي لم يسمح له أن يكونه.

أجمل فنجان رأيته في حياتي

أجمل فنجان قهوة رأيتهُ في حياتي، كان في ملجأ أسرة سورية لاجئة في بقاع لبنان. الأسرة تقطنُ غرفة كانت فيما مضى حظيرة مواشي، تم تفريغها من الأبقار لكي يسكن فيها أبو زهير، وزوجته، وثمانية من أحفادهم. بين حينٍ وآخر، يظهر في الغرفة عقرب، أفعى صغيرة، أو جرذ، يدلفُ من ذاكرة الحظيرة السالفة. المكان ببساطة، لا يصلح للسكن الآدمي، ولكن أبو زهير يدفع قرابة الـ 100 دولار كإيجارٍ شهري لكي يجد سقفا وأربعة جدران تحمي أسرته.

أبو زهير «ختيار» سوري من المعضمية، في الواحد والسبعين من عُمره، ذهبنا لزيارته لكي نقنعه باستضافة حفيداته الثلاث (رنين، رؤى، وصفاء) في دار الأيتام (بيت ليان). لا أعتقدُ بأن هناك مهمة أصعب من أن تقنع جدًا بحنانه بأن يترك لك مسألة رعايةِ بناته، ولكنني رأيتُ الحبّ شاسعا في عينيه بما يكفي لكي يسمحَ بالأمر. كان في عينيه دموع، كان في عينيه

بحر.

قتلت والدة رنين ورؤى وصفاء برصاصةِ قنّاص في الشارع، سقطت على الرصيف أمام بناتها. الجارة التي شهدت الواقعة ركضت لكي تنقذ حياة الصغيرات، انتزعتهنّ من جثمان أمّهنّ لكي تدخلهن إلى البيت. الجارة أيضًا – هذه الباسقة – قتلت بثلاث رصاصاتٍ في الظهر. لستُ بصدد التساؤل عما يريده قنّاص من قتل امرأتين أمام ثلاثة أطفال، بصدق لستُ راغبة حتى بالدخول إلى سؤالٍ كهذا. ما يعنيني هو البناتُ الآن، رنين ورؤى وصفاء، الأب المعتقل والأم الشهيدة، والجدّ العاجزُ تمامًا عن إيجاد اللقمةِ والسقف والمقعد المدرسي.

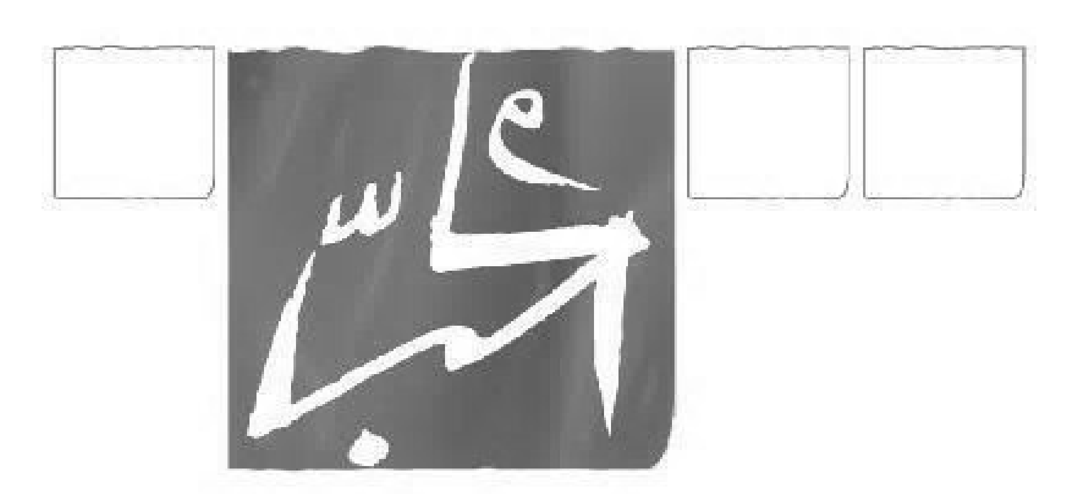
في دموع أبي زهير وغصّته السبعينية رأيتُ شموخَ الكرم السوري. حكى لنا ما فعله أهل المعضمية لأجل أهل داريا، وأم زهير/ زوجته منهم. عندما وقّع أهل المعضمية هدنة مع النظام، وتوفرت لهم الأغذية بعد حصارٍ شرسٍ من التجويع المنهجي، حاولوا إيصال الأطعمة إلى جيرانهم في داريا. يقولُ أبو زهير: كيف أنام شبعان وجاري جوعان؟ كعقوبةٍ على تهريب الأطعمة، أطبق النظام على المعضمية بحصارٍ كامل من التجويع والقصف. أبو زهير يملكُ منزلين اثنين في سوريا، وهو الآن يسكن في حظيرة.

أعودُ إلى الفنجان، أجمل فنجانٍ رأيته في حياتي كان في بيت أبي زهير، قدّمت لنا أم زهير القهوة الفواحة في فنجانٍ بديع، بدا متنافرًا مع المكان المحيط. علّقتُ على جمال الفنجان وأنا أسقطُ في المفارقة، قالت أم زهير بأنها

عندما حانت لحظة نزوحهم لم تدرِ ما الذي ستأخذه معها. دخلت إلى المطبخ: «ما لفت نظري غير القهوة والفناجين».

نعم، أجمل فنجانٍ رأيتهُ في حياتي، لأن فيه ذاكرةَ بيتٍ كامل، شعبٍ كامل، وطنٍ كامل. عندما تنحاز السيدة السورية لفنجانِ قهوةٍ وهي مهددة بالموتِ، يمكنك أن تنفذ بعيدًا، بعيدًا في الحقيقة لترى إلى أيّ حدٍ مقدسة هي حياةُ الإنسان.. الإصرار العنيد على الجمال الكامن في أصغر التفاصيل، الإصرار على الحياة.

الحُبّ





أحبك يا لغتي الأم، يا أمّي اللغة

المبتدأ يرفع رأسه. يعرفُ بأنه يقف في أول الطابور، بأنه الكلمة التي كانت في البدء، وإن تأخر ظهورها. المبتدأ سعيد بحظوته في السياق، يرفع رأسه متباهياً بقدر ما يستطيع، المبتدأ مرفوع.

الخبر أيضاً مرفوع. الخبر مستودعُ السرّ وحاملُ الحكايا، في بطنهِ كل المعنى، وفي غيابه كل العدم، لا يحتاج أن يجيء أولاً لكي يشعر بأهميته. الخبر يرفع رأسهُ ويعتقد أن ذلك من حقه. الخبر مرفوع.

الفاعلُ مرفوع. لأنه يأخذ زمام المبادرة، يقول افعل شيئاً، فهذه حياةٌ واحدة. الفاعل فخور لأن يده ملطخة بالطين ووجهه معفر بالتراب، يقولُ: أنا أفعلُ الأشياء ولا أنتظر حدوثها لي. الفاعل مستودع التجربة. الفاعل مرفوع.

المفعول به منصوب، من فرطِ نصبِ العيش. إنه رازحٌ تحت حكم الفاعل، يدوس على بطنهِ ويفعلُ فيه الأفاعيل. المفعول به منصوب ومصلوب

ومتعب، أحس به يقول ما قاله المعرّي: «تعبٌ كلها الحياة»..

أسماء الجرّ مسكينة، أراها مشدودة من أعطافها، حروف الجرّ – رغم صغرها – إلا أنها قوية السواعد، تسحلها على طول السطر، أسماء الجرّ تردد بيت مالك بن الريب: «خذاني فجراني ببردي إليكما، وقد كنتُ قبل اليوم صعباً قياديا». تتحسر على أيامٍ كانت فيها خارج سلطة حروف الجر، أيام كانت أسماء مرفوعة، كالأعلام عالياً ..

كان وأخواتها يجلسن حول المائدة، يأكلن البسكويت بالشاي. أضحى ضحوك، أصبح صبيحة الوجه، صار كثيرة التحوّل، ظلّ تحب الظلال، بات نؤوم، أمسى تمسح على يديها وهي تحدث أخواتها عن آخر الحركات. أحب كان وأخواتها وجلسات الشاي التي لا تنتهي بينهن ..

الضمةُ جنين، برأس وذيل، يلتفُ على نفسه. يبحثُ عن حرفٍ يحتضنه، عن حرفٍ يضمُّه. الضمة طفلٌ دافئ بين ذراعي الحرف.

الشدّة مشدودة الأعصاب، تقول للحرفِ: كن أكثر. أنت أقل مما يجب وهذا لا يكفي، فليكن صوتك أعلى. الشدة شديدة اللهجة مع الحروف ولكنها طيبة القلب.

السكون، تلك الدائرة متقنة الشكل، هالة السكينة حول الحرف، قدسية العربية تكمنُ فيها. في السكونِ أسكنُ ويرتاح قلبي، السكونُ بيت العالم.

ماذا يسعني أن أقول عن اللغة وهي أم؟ ماذا أقول عن اللغة عبر اللغة؟ ماذا أقول عن أصدقائي الحروف الـ 28، عن الحركات، عن قوانين النحو، ماذا أقول عن هذه الأم الكونية التي تحتضن قلبي كل يوم، وتجعل حياتي أخف وطأة؟

أحبك يا لغتي الأم، يا أمي اللغة. أحبك حبّين، لأنك أمٌ ولأنك لغة. اهمسي لي بأسرارك، كلّي آذان..

الواحِد

أريد شيئًا واحدًا.

الواحد قليل. إنه ليس كثيرًا ولا ملتبسًا، وليس مستحيلاً ولا متعذّرًا ولا صعبَ الفهم. أريدُ شيئًا واحدًا والواحد بسيط، لا يقبل القسمة إلا على نفسهِ. إنه يقفُ منتصبًا لكي يشيع في العالم مبدأ البساطة. لماذا تخيفكم البساطة؟ لماذا يخيفكم الواحد؟

ماذا كنتم ستفعلون لو أنني أتيتُ اليوم، وفي يدي سلالٌ كثيرة من الأحلام، والأماني، والمطالب؟ عندي أحلامٌ تكفي لكي ينبت لهذا العالم أجنحةً وسماوات، ولكنني لم أفعل، لم أتمنَّ، لأنني أدركُ أنكم لا تقدرون على الكثير، فاكتفيتُ بالواحد، الواحد الذي أنجب الكثير، الواحد الذي هو مصدر كل شيء، الواحد الوالد الذي تمخّض عن اثنين، وثلاثة، وأربعة، ومليون، ومليار، و..

لقد اكتفيتُ بالواحد؛ تمسّكتُ بجذرِ الحلم، وتغاضيتُ عن سماواته. تواضعتُ، جثوتُ على ركبتيّ وضممتُ كفيّ وتلوتُ عليكم حلمي، الحلم الواحد،

الوحيد، الوئيد، الحلم الذي يختصر كل شيء ويختزل كل شيء ومنه ينبثق كل شيء، بعد سنواتٍ وسنواتٍ أمضيتها أشطب سطورًا من قائمة أحلامي، وأسمحُ للعالم بأن يصغر، أن يتقوّض، أن ينكمش.. قلتُ سأغفر لكم، سأغفر لكم، يا حضرات القضاة وحضرات السادة المستشارين وحضرات الجلادين والقيّمين على شئون هذا الجحيم. يا أيها الممعنين في نتف الأجنحة وخلخلة الفضاءات، سأغفر لكم كل هذا، كل اللدغاتِ وكل العضّاتِ وكل الخطاطيف المعلقة على ظهري، سأغفر لكم غياب الجمال والفضيلةِ والنبل وكل الترهات التي آمنا بها رغم افتقارنا إلى أدلة وجودها، سأغفر لكم أن السماء ما عادت هي السماء، وأن الأرض ما عادت هي الأرض، وأن الجحيم خرج عن الجغرافيا المفترضة وبدأ يستوطنُ كل شيء. سأغفر لكم يا سلاطين الظلام، يا سادة المحكمة، يا قتلة يا مجرمين يا سجانين يا سادة هذا العالم، سأغفرُ لكم أنكم صادرتم مني كل شيء، ولكنني أريد شيئًا واحدًا.. واحدًا جدًا.

أريد الواحد، الواحد الذي لا تملكونه وليس لكم حقّ مصادرته، أريدُ الواحد الذي لا يصحّ شيء بغيابه، وما فتئتم تسددون إليه الأنصال والسكاكين والخناجر والأمواس، أريده رغم حصاركم، أريد نوره رغم ظلامكم، أريد هذا الواحد أيها القتلة.

أريدُني.

عن تقبيل الضفادع

لم يبطل السّحر عن الضفدع بقبلةٍ من الأميرة.

في الحكايةِ الأصلية التي تعود إلى مخطوطة لاتينية من القرن الثالث عشر وثّقها الأخوان غريم، يبطل السحر ويتأنسن الضفدع بعد أن تقذف به الأميرة على الجدار. ضحكتُ من أعماقِ قلبي وأنا أكتشفُ النسخة القديمة من الحكاية، ما الذي تقترحه القصة يا ترى؟

كانت الحكاية، في النسخة الأصلية، تسلّط الأضواء على مبدأ الحفاظ على الوعد، وعدم الحكم على الأشياء من مظاهرها، فالضفدع يمكن أن يكون أميرًا، والأمير الوسيم يمكن أن يكون ضفدعًا أيضًا، كما نعرف نحن النساء.

أما في النسخة الحديثة، فإذا ما نام الضفدع في وسادة الأميرة، وأكل من طبقها الذهبي، وشرب من كأسها الصغير، فسوف يتحوّل إلى أمير. وفي نسخٍ أخرى، يكون على الأميرة أن تقبّل الضفدع حتى يتأنسن.

في الحكايتين، الأميرة لا تبادل الضفدع أية مشاعر، ولا تحس تجاهه

إلا بالقرف. وفي الحكايتين، الأميرة، بالنسبة للضفدع، هي ذريعة لخلاصه، وهي بذاتها، لا تعني شيئًا له، إنه يحتاجها وحسب. أتساءل لماذا تزوج الاثنان بعد أن زالت اللعنة عن الضفدع؟

كان من أطرف ما قرأت، مقولة الباحثة التاريخية ماريا تاتار، بأن «على المرأة أن تقبّل الكثير من الضفادع لكي تعثر على أمير». يا لها من مهمّة شاقة، أن تقضي حياتك في تقبيل الضفادع، واحدًا بعد آخر. ماريا تاتار فاتها أمرٌ مهم، أن القبلة السحرية يمكنُ أن تكون بمفعولٍ عكسي، وبدلا من أن يتأنسن الضفدع، سوف تتضفدع الأميرة.

أعتقد بأنَّ الغلبة هي دائمًا للطبيعة الأقوى، سواءٌ كانت أميرية أو ضفدعية، وعليهِ يجب على الأميرة أن تحذر من الشخص الذي تقبّله، فعواقبُ هذا الفعل غير مضمونةٍ أبدًا.

وإذا كانت القُبلة في القصص الخيالية ترمز إلى الوحدةِ والانسجام، فهذا لأنّها كذلك فعلا. وعليهِ يجب على المرء والمرأة أن يتبيّنا طريقهما بحذر، وأن يختارا، بعناية، الشخص الذي يقبّلانه، ويتوحدان معه.

رأيتُ طوال حياتي أميرات ينمسخن إلى ضفادع، بسبب علاقات غير سوية، وخياراتٍ مغلوطة. تبدأ الحكاية بالأميرة الجميلة التي «تغار منها الشمس» على حدّ تعبير الأخوين غريم، وتنتهي بمخلوقة ضفدعية بامتياز. بشرةٍ مبقعة وبطنٌ مترهّلة وجوع عاطفي وسطل مليء بالآيسكريم ومسلسلات

تركية على مدارِ الساعة. ما الذي حدث؟ كيف تحولت الأميرة إلى ضفدعة؟ كيف تحوّلت من البهاء إلى الهباء؟

أنا أجيبكم. لقد قبّلت ضفدعًا. وكان عليها، على الأرجح، أن تقذف بهِ على الجدار.

حورية البحر الصغيرة

أفكّرُ في حورية البحر الصغيرة.

لا أقصد «آريل» ديزني، بل الحورية الأولى، الأصلية، التي ابتدعها الدنماركي هانس كرستيان آندرسن، ومنحها أكثر تجارب الحبّ لوعةً وألمًا.

أقرأ حورية البحرِ الصغيرة وأتساءل عن مدى وجوب أن تتضمخ حياة الإنسان بالمأساة؛ لو أن حورية البحر الصغيرة جَرُؤت على الاقتراب من الأمير الذي عشقتهُ، بذيلها السمكي وصوتها الملائكي، لو أنها أخبرته بأنها أنقذته من العاصفة تلك الليلة وسبحت به إلى الشاطئ وغنّت له أثناء نومهِ، ألم يكن ليحبها؟

«العبادة بلا تضحية» هي واحدة من الخطايا الاجتماعية السبع التي وضعها المهاتما غاندي، وإذا تذكّرنا بأن العبادة، لغويًا، هي آخر درجات الحبّ، فإن حورية البحر الصغيرة قد عشقت الأمير بهذا الشكل «الديني» جدًا؛ الشكل الذي يستدعي أن تذهب في سبيلهِ إلى ساحرة البحار لكي تقطع لسانها

وتهبها ساقينِ بيضاوين، متوجعتين على الدوام.

أفكّر بحورية البحرِ الصغيرة وما تكبّدتهُ في سبيل الحب؛ كل خطوةٍ مشتها على الأرض كانت تدمي قدميها، كأنها تمشي على سكاكين. ضياع الصوتُ الملائكيُّ الذي لم يحظ بمثله أحد في «بلاد ما فوق البحار» و «بلاد ما تحت البحار» أيضًا؛ فقدُ الأخوات والأب، ملك البحار، والجدة الطيبة التي تقصّ عليها أخبار البشر وتزيّن شعرها بأزهار السوسن.

أفكّر بحورية البحر الصغيرة، بكل ليلةٍ أمضتها في قصر الأمير وهي تطلّ من الشرفة لترى أخواتها يرسلن لها غناءهن الحزين ويبكين على مصيرها، أي عذاب؟

أفكر بحورية البحر الصغيرة التي كان في وسعها أن تقتل الأمير وتستعيدَ ذيلها السمكيّ لتعود لحياتها السابقة، ولكنها لم تفعل. أفكر بها وقد تحوّلت إلى واحدة من «بنات الرّيح»؛ تدخل بيوتَ البشر وتبتسمُ لأطفالهم وتروّح عنهم في حرّ الصيف. حورية البحر التي تحولت إلى نسمة من أجل أن يبقى الأمير حيًا وسعيدًا بعروسهِ ذات العينين السوداوين، متوهّمًا أنها الفتاة التي أنقذت حياته.

لقد كتب هانس كرستيان آندرسن حكاية حبّ مؤلمة، عن التضحياتِ التي لا ينتج عنها إلا مزيدًا ومزيدًا من التضحيات». أفكر بالعاشقة الصغيرة التي اكتفت بالحبّ لذاته وخسرت في سبيله كل شيء. أفكر بحورية البحر،

قلبي عليها، هذه الغضة ذات الستة عشر ربيعًا. أتساءل، لو أنها اقتربت من الشاطئ، بذيلها السمكي وصوتها الملائكي، وقالت للأمير: اعشقني! هل كانت ستتألم إلى هذا الحد؟

تعلمنا الدرسَ بصعوبة

تعلمنا الدرس بصعوبة.

قلنا: يجب أن نحبهم كما هم؛ بلا رتوش، بلا زوائد. يجب أن يحبّونا كما نحن، بلا قدرات خارقة، وبكثيرٍ من الاعتوار الذي يعترينا.

تعلمنا الدرس بصعوبة، قلنا: ما من علاقةٍ كاملة. العلاقة الكاملة لم تخلق بعد. قطعتي» البزل» المتوائمتينِ خرافة. آمنا بالحب كاملاً بقدرِ ما آمنا بالعلاقةِ ناقصة.

تعلمنا الدرس بصعوبةٍ يوم قلنا: مجّد النقص فيك، إنه عنوان إنسانيتك. احتضن نقصك لكي أحتضنه أنا. قبّل جروحك ودمامِلك لكي أحبّها أنا.

تعلمنا الدرس بصعوبةٍ يوم اعترفنا باستحالةِ الكمالِ، يوم عرفنا بأن النقص يشوبُ كل شيء. قلنا، عظيمٌ جدًا هذا النقص، وحده يدفعنا للمضي. وكان المضيّ ألمًا، منذ البدايةِ وحتى النهاية.

تعلمنا الدّرس بصعوبةٍ واعترفنا؛ بأن العالم لا يشبهُ القصص المصوّرة، بأن النساء لسن حوريات « الفيري تيلز «، بأن الرجال ليسوا أمراء وليسوا ضفادع. تعلمنا الدرس بصعوبةٍ يوم اكتشفنا بأننا نتشابه، يوم خذلتنا سطحية الاختلاف.

تعلمنا الدرس بصعوبةٍ، يوم قلنا حيواتنا لا، ولم، ولن تشبه أبدًا.. شاشة السينما. حيواتنا أقل وأبسط. أبطال السينما يحظون بالحياةِ «على أصولها» ونحظى نحنُ بشرف التفرّج، واختلاق المزيد من الحكايا و ..

تعلمنا الدرس بصعوبةٍ وبكثيرٍ من الدمع يوم قلنا: هذا الواقع الهزيل، سوف نرممه بالقصائد، سوف نحشوه بالفن، سوف نغمره بالمعنى.

تعلمنا الدرس بصعوبة، درس الأنا ودرس الآخر، درس الذات ودرس العالم.

تعلمنا.. تعلمنا بألم..

تعلمنا..

الإنسان أم العلاقة؟

أيهما أهم، الإنسان أم العلاقة؟

الأمومة أم الأم، البنوّة أم الابن، الصداقة أم الصديق، الزواج أم الزوج؟

يبدو سؤالاً غريبًا، فنحنُ في العادةِ لا نميلُ إلى الفصل بين الاثنين، عوضًا عن كوننا اعتدنا أن ننظر إلى كل إنسان من خلال شبكة العلاقات التي تكون عالمه، وكأن تلك العلاقات التي يُعتبر طرفًا فيها، هي الشيء الوحيد الذي يجعلهُ مرئيًا.

الإنسان كإنسان، الكائن الضعيف الخارق، بكل ما يحملهُ من تناقضات وأحلام ومشاعر ودموع وآلام وأفراح ورقص وجمال وعظام وعروق ولحم ودم، هذا الإنسان المجرّد إلا من إنسانيته، لا نستطيع أن نراه، لم يخبرنا أحد بأنه موجود، بهذا الشكل العاري إلا من حقيقته الخاصة.

الإنسان غير مرئي، فما يهم المجتمع - المجتمع بصفته أيضًا مجموعة من الناس يعيشون مع بعضم البعض - هو تلك العلاقات التي تشدّ

بعضهم إلى بعضهم الآخر.. العلاقات الاجتماعية التي تجعلُ المجتمع ما هو عليهِ.

ورغم أن المجتمع يتكون من مجموعة من الناس، إلا أن له وعيًا يخصه، يبدو مستقلاً عن وعي كلٍ منهم، وهو للأسف الشديد ليس بالوعي الفائق، بل على العكس، إنه وعيٌ أكثر بدائية، وعي الكائن الخائف من زواله والذي لا يريدُ إلا أن يضمن استمراريته.

هاجس البقاء هو الدينمو الذي يجعلُ المجتمع قوّة قاهرة مسلّطة على رؤوس كل من يحاولُ أن يتخفف من أي نوعٍ من أنواع العلاقات، سواء تلك التي تربطه بمعتقد أو مذهب أو حزب أو زواج أو غيره.

إنني أؤمن بأن الإنسان هو غايةُ الشرائع، وأن كل القوانين والأديان قد جاءت من أجل حفظ كرامتهِ وحقه في الحياةِ وقدرته على التجربة وتوليد الجمال. نعم أؤمن بذلك، نظريًا، على الورق الأبيض للعالم المثالي، أؤمنُ بأن الإنسان هو الغاية. في الواقع، في المكان الرماديّ الفسيح الذي أقفُ عليه بقدمي، أرى حقيقةً أخرى. أرى العلاقة أكثر أهمّية من إنسانها، من سعادته وأحلامه وحتى من إنسانيّته.

بعض العلاقات تختنقُ إنسانها، تقتله على مهلها، تمسخه، تحيلهُ إلى كائن مشوّه ومجروح وحزين، ومع ذلك يحاربُ المجتمع - بكلّ أدواته / بكل أناسهِ - من أجل الحفاظ على العلاقة، حتى لو كان ذلك على حسابِ

الإنسان.

لا يستطيع المجتمع أن يتفهم المرأة التي تقول بأنها «ليست جاهزة للإنجاب، وقد لا ترغب بذلك أبداً». لا يستطيع المجتمع أن يتفهم الرجل الذي يقرّر بأنه مرتاح في عزوبيته ولا يفكر بالزواج. لا يستطيع المجتمع أن يغفر للولد الذي يقول بأنه لن يغفر لأبيه؛ لأنه جلده بعقاله طوال سنوات طفولته. لا يستطيع المجتمع أن يغفر لامرأة تطلب الطلاق من زوجها ما لم يكن هذا الزوج سكيرًا أو ماجنًا أو بخيلاً. لا يستطيع المجتمع أن يتعاطف مع شابٍ بدّل مذهبه لأنه رأى الحقيقة تلوحُ له في مكانٍ آخر. لا يستطيع المجتمع أن يغفر لإنسان يرفضُ أن يصنّف نفسه في حزبٍ أو جماعة. وبالتأكيد لا يستطيع المجتمع أن يتسامح مع شخصٍ وضع كل المعتقدات التي ورثها على الرّف وقرر أن يبحث لنفسه، بنفسه، عن الحقيقة.

ما يهم المجتمع ليس سعادة هؤلاء، ولا حقهم في الحياة متناغمين مع أنفسهم، ولا حتى حقهم في اختيار الكيفية التي يريدون أن يعيشوا بها حياتهم. لا يهتمّ المجتمع لحقيقة أنه يمعنُ في تفريخ المزيدِ والمزيدِ من المنافقين. فالمهم في الأمرِ هو أن نستمر في إنتاج النموذج المزيّف نفسه، النموذج القياسي، الـ free size الذي يفترض أن يناسب الجميع، وهو في الحقيقة لا يناسبُ أحداً، لا يناسبُ إلا المسوخ الذين قايضوا إنسانيتهم وفرديتهم من أجل مجموعة «متفق عليها» من العلاقات.

الحديقة السرية

تعالوا نتفرّج على فيلمٍ من طفولتي. قلتُ لأطفالي. شغلتُ الفيلم وجلسنا. بعد عشرين دقيقة انصرف الأولاد للّعب وبقيتُ وحدي، مقرفصة على الأريكة، أحدّق في الشاشة كمن يحدق في جرح. عرفت وقتها بأن «الحديقة السريّة» تخيفني قليلاً.

أخذتني «الحديقة السرية» إلى أغوارِ طفولتي. لطالما فتنتُ بالقصّةِ التي تتحدث عن حديقةٍ مخبّأة مثل سر، لها مفتاح ضائع وأسوارٌ غليظة، لا يدخلها إلا طائر الحناء الأحمر، الطائر نفسه الذي أرشد الأطفال إلى المكان وكشف لهم ممكناته. يا لها من حكاية! حكاية التعافي، الاتصال مع الأرض والماء والعشب والعصفور والوحلِ والوردِ والمطر، حكاية الخروج من ألم اليتم والوحدة وقسوة العالم إلى رهافةِ الوردة وفلسفة الشجرة. كانت واحدة من قصصي المفضلة وأنا طفلة، وما زالت تتمتع بسطوتها على ما يبدو.

«الحديقة السرية» هي رواية للكاتبة الإنجليزية – الأمريكية فرانسيس هودغسون برنيت، رواية تتحدث عن السحر الكامن في سرانية المعرفة،

وتقديس الأسرار وحمايتها، فالحديقة المسوّرة من كل صوب، والتي أقفلت بوابها بمفتاح من حديد، هي تلك المنطقة البكر والعميقة في كلٍ منا، المكان الخصب الذي يولد الجمال والذي نحتاج أن نكتشفه ونعتني به، على نحو ما فعل الأطفال في الرواية.

شعرت بأنني قد اصطدمتُ، داخل الفيلم، بالولد المريض، الذي تركه والده بعد وفاة أمه تحت رعاية مدبرة المنزل، المقتنعة سلفًا بأنه طفلٌ عليل وضعيف ومشروع أحدب مقوس الساقين لن يعيش طويلاً، وبناءً عليه قامت بتنشئته على هذا النحو، على النحو الذي جعله يصدق بأنه عليل وضعيف ومشروع أحدب مقوس الساقين لن يعيش طويلاً. أقنعته بأن ضوء الشمس يؤذيه، أن الجراثيم تتربص به، وأن عليه ألا يتحرك من السرير حتى لو أدّى ذلك إلى ضموره وتآكل روحه. حاصرته بالعناية إلى درجة أوشكت معها على قتله، حتى ظهرت ابنة خالته في حياتهِ وعرف من خلالها بأن العالم في الخارج ليس فضاء تسبح فيه الجراثيم وحسب.

على مهلها استطاعت ابنة خالته أن تخرجه من سريره، أن تأخذه ليلامس العشب ويتنشق الهواء ويعرّض جسده للشمس. أن يجرب المعرفة بنفسه وليس من خلال قنوات الآخرين. بالتأكيد، وكما نرى في الرواية/ الفيلم، وجدنا الصبي العليل المحتضر يقف على قدميهِ ويمشي خطواته الأولى وهو في العاشرة من عمره. رأينا الرواية تنتهي بشكلٍ جميل، ولكنني لم أستطع أن ألجم نفسي عن السؤال: ترى، كم من الناس من حولنا يعيشون حياة هذا

الولد؟ الولد الذي أوهموه بأنه مريض حتى مرض؟ الولد الذي حجبوا عنه الضوء والهواء والمعرفة وصار يتحسس وجوده الهزيل عديم المعنى من خلال المعلومات الجافة التي يمنحها له الآخرون؟ كم منا سلّم نفسه بهذا الشكل الأليم إلى شخصٍ آخر؟ كم منا يعيش في وسط بيئة تبرمجه كل يوم بأنه مريضٌ ويحتضر؟ غبي؟ فاشل؟ عاجز؟ متخلف؟ مجنون؟ غريب؟ من منا يسلم من اليد الآثمة لمدبرة البيت التي تقوم بقتلنا ووأدنا وخنقنا باسم الحب؟

الجميل في الأمر أننا رأينا كيف استطاع الصبي المقتنع سلفًا بموتهِ الوشيك أن يحب الحياة. إذا كان ذلك ممكنًا، لأن الروايات تفهمُ الواقع كما أزعم، فلكلٍ منا أمل، أملٌ حقيقي وغير مغشوش، أن يخطو خطواته الأولى التي لم يخطها بعد، ولو بعد عشر سنوات.

الحرّية





حبل مشنقة، حبل نجاة

لم أكن أحبُّ الحبال.

كانت هي الشيء الذي يشدّني إلى الوراء، أو يقيّدني في مكاني. أشعر معها بأن الأفق متعذرٌ، أو مُصادر؛ كأنّها تحول بيني وبين أن أتحقق.

في البدءِ كرهتُ الحبال، قطعتُها كلّها. مضيتُ.

وأنا أمشي، مُتخفّفةً من حبالي، اكتشفتُ أنَّ للحبالِ ظهوراتٌ مختلفة عمّا اعتدته. اكتشفتُ أنه من دونِ الحبل، لن تنتصب خيمة السيرك الكبيرة في الخلاء، ولن يمتلئ المكان بالأطفال والبالونات.

اكتشفتُ أن الطائرة الورقية، بصفتها كائنًا توّاقًا إلى السماوات البعيدة، لا تستطيع أن تحلّق أعلى، من دون حبلٍ يشدّها إلى أسفل، يعدلُ زاوية تحليقها، ويمنحها فورة التجربة.

اكتشفتُ أن الدلوَ، هذا الظمآن، لا يستطيع بلوغ البئرِ، من دون حبلٍ

يأخذهُ، بكل الحنان الممكن، إلى الماء.

اكتشفتُ أننا لا نستطيع أن نفتح الستائر، ونغتسل بأشعة الشمس، لولا الحبلِ الرفيع المثبّت في الزاوية.

اكتشفتُ أن الصواري لن ترتفع، والأشرعة لن تُفرد، وأن السفن لن تُبحر، وأن الزرقة لن تُسبر، وأن المراكب ستصدأ وحيدةً على الشطآن، يأكلها الملحُ والصدأ والسأم. من دون حبال.

لا أحد يغادر، لا أحد يعود، من دون حَبل.

يمكنُ للحبلِ أن يكون حنونًا، وحليفًا للحريّة.

يمكنُ للحبل أن ينقذ حياتك، وأن يقتلك أيضًا.

لا نستطيع أن نوجد في هذا العالم من دون حبال؛ بقي أن نختار طبيعة الحبالِ التي نريدُها؛ حبل مشنقة، أم حبل نجاة؟

الأمرُ يعتمد عليك.

ثريا

التقيتُ ثريا في خيمة السيرك الإيطالي العالمي، في براحٍ رملي بين مباني السالمية.

ثريا لا تعرفني ولكنني أعرفها جيدًا، أحتفظ في ذاكرتي بتفاصيلها كاملة؛ أنيابها المبرودة، مخالبها المنتزعة من قبضتها، تكشيرتها المستعرة، والبؤس الشاهقِ في عينيها. أذكر شراستها التي لا تروّض، ولا حتى بألف سوط.

ثريا أنثى النمر التي فشل مدرّب النمور في ترويضها. في بداية العرض يخرجُ «سيمبا» إلى الجمهور، نمرٌ ضخمٌ وهادئ، يفعلُ كما يؤمر، لا يخيف الجماهير بزئيره، لا يتردد أمام حلقات النار، يصعد الدرجات ويهبطها بضربةِ سوطٍ واحدة. يا للمأساة! قلتُ لنفسي، وأنا أتأمّل النمر الذي حولوه إلى داجن.

ثمّ تدخلُ ثريا إلى العرض، ثريا هي التحدي الحقيقي. أصغر حجمًا

وأكثر هزالا، وهي دائمًا غاضبة، تلوّح وتزأر. كل ضربة سوط تزيدها غضبًا. ترى على جلدها آثار التعذيب، وترى في ضآلتها آثار التجويع. أي حركة من السوطِ من يد المدرّب تجعلها تقف على قائمتيها لتثب عليهِ وتنهشه. المدرّب يضحكُ وهو يضع السوط على فمها ويذكرها بضرورة أن تكون، مثل سيمبا، دجاجة.

لسببٍ ما، نجح المدرب في إقناع سيمبا بأنه داجن، وبمبالغ السأم والاستخفاف كان سيمبا يؤدي دوره دون أن تبدو عليه تلك البهجة الساذجة التي نراها في الجِراء والدلافين، ولكن ثريا، ثريا غير قابلة للترويض، إنها تعرفُ حقيقتها على نحوٍ جيد، تعرف صرخة الحرية المتوحشة في عروقها.

عندما كشرت في وجهِ الجلاد الإيطالي ذي الكرش الضخمة والسوط الطويل شهق الحضور: يا للوحشية! قالوا. صوتُ الزئير أثار حفيظتهم، لسعة السوط لا.

مسكينة ثريا؛ بردوا أسنانها، وانتزعوا مخالبها. وكان ظهورها في العرضِ تلك الليلة هو لزيادة العدد، وفيمَ قام «سيمبا» بتأدية العرضِ كاملاً، كانت هي واقفة على المنصة الخشبية، متوثبة، جريحة، مستعدة للانقضاض على جلادها والموت في سبيل ذلك، ولو حاول أحد أن يظهر أي نوعٍ من اللطف معها، لو حاول إطعامها أو المسح على رأسها مثلاً، فستهجم عليهِ أيضًا، وبدون تردد، لأنها لا تعرفُ من هذا العالم إلا وجهه القميء؛ وجه

الجلاد.

عندما انتهى العرض هتفت الجماهير «برافو سيمباااا» .. وحدي أنا، انتصبتُ واقفة، ورفعت يديّ فوق رأسي أصفّق؛

برافو ثريااااا .. برافوووو!

ريفلوكسولوجي روحي

إلى شيماء؛ امرأة حافية تحتفي بالاحتفاء.

عندما يقولون «حرّية»، أقولُ: طفلةٌ تمشي على العشبِ حافية.

لا أعرف طريقة أخرى للإحساس بالحرية؛ لإدراكها، مَنْطَقَتِها، وتعريفها. فهي مجردُ طفلةٍ تمشي على العشبِ حافية. الطفلة التي قالوا لها ألا توسخ ثيابها، وألا تخلع حذاءها، ألا تتلوث بالطينِ، وألا تتعفر بالتراب، ألا تتسلق الأشجار، وألا تمزق ثوبها السماوي بأكمام الدانتيلا. الطفلة التي ربطوا قدميها بحذاءٍ ثقيلٍ ثم أطلقوها على العشب لكي تتعلم الحسرة. هذه الطفلة، عندما تخلعُ حذائيها وتلقي بجوربيها في الهواء، هذه الطفلة هي الحريّة.

عندما بدأتُ كتابة روايتي الأولى، وكانت الرواية تدور في مدينة «أبسالا» في السويد، وهي مدينة فارهة الاخضرار وبشكلٍ لا يصدّق بالنسبة لفتاةٍ تجيء من صحراء الخليج، وقد رأيتُ فيها ورقة شجر كبيرة بما يكفي لكي تصنع منها معطفًا مطريًّا. كان العشب هو اللغة الرسمية للمكان، وكانت

الكلمات دجلاً صوتيًا محضًا. في تلك الأيام، أيام كتابة روايتي الأولى، شعرتُ بأن هذا هو ما أفعله تحديدًا؛ أفك خيوط حذائي وألقي به بعيداً لكي أتلامس مع العشبِ.. من باطن قدمي. كانت الكتابة تأخذني للعشبِ حافية.

لا معنى للفساتينِ عارية الأكمام، لا معنى للبلوزة القصيرة ولا للتنورة القصيرة ولا للرأس السافر. لا معنى لأي شيء ما لم تكن الأقدام حافية. العري الوحيد هو عري القدم. القيدُ الوحيد هو قيدُ القدم. بكل ما تستطيعه هذه القدم من رقصٍ وركضٍ وركلٍ. بكل الأمكنة التي تمنح نفسها بسخاءٍ لقدمٍ حافية تتلامس معها دون ترفعٍ، دون تلك القامة الشاهقة للكعبِ العالي.

قدمٌ تلامسُ العالم، تقبّله مع كل خطوة، تعيش مع الطريق قصة حب واضحة ومباشرة وغير متكلفة. قدمٌ تدركُ وجود الشوك والشظايا والزجاج المهشّم ولكنها لا تستسلم له. امرأة حافية تحتفي بالاحتفاء.

قلتُ لكِ مرّة: الحريّة تبدأ من باطنِ القدم. كل شيءٍ يبدأ من باطن القدم. كل فكرة قادرة على أن تصول وتجول وترقص رقصتها السعيدة داخل رأسكِ، تأتيكِ من قاع قدمك. وإذا كان باطن القدم هو موطن كل ما هو جسدي وأرضي وحسّي في الإنسان، وإذا كان الصينيون قد اكتشفوا بأنهم يستطيعون بعثكِ وشفاءكِ وقتلكِ من باطن قدمك. وإذا كانت كل أعضاءك وأحشاءكِ الداخلية تملك خارطة خاصة في باطنِ قدمك، إذا كانت بواطن أقدامنا بهذه الحيوية فعلاً، فيجدرُ بنا أن نبدأ من هنا؛ أن نثور على الأحذية. تلك التي

بخيوط، والأخرى المغرورة ذات الكعب العالي. أحذية المجتمع، أحذية رجال الدين، أحذية النفاق، أحذية الغلو، أحذية كثيرة، كثيرة، سوف نلقي بها في الهواء. سوف نحتفي بالاحتفاء.

أنتم مخطئون بشأننا، وبشأن العالم أيضًا..

قرأتُ قصة «رابونزل»، الحسناء حبيسة البرج، ضفيرتها طويلة بشكل مستحيل، بطول البرج تقريبًا، تلقي بها من الشرفة لكي تزورها الساحرة التي اختطفتها، ثم تغادرها وتتركها وحيدة، تنتظرُ زيارةً أخرى. فتاة مصابة بمتلازمة ستوكهولم بجدارة، سجّانها هو صلتها الوحيدة بالعالم، حتى جاء اليوم الذي زارها فيه أميرٌ وسيم، وأنقذها من الأسر، ولن أقول حرّرها، لأن الحرية خيارٌ ذاتي، ولستُ متأكدة مما إذا كانت رابونزل القصص المصورة قد أقدمت عليه.

النسخة الذكورية من الحكاية؛ حيث الأنثى سلبيّة والرجل يحتكر البطولة كاملة، لم تكن قصةً جميلة بأي حال. مجرد أميرة من النوع الرديء، عاجزة وحبيسة القدر، تنتظر مجيء المخلص. رابونزل القصص المصوّرة مملة، تفتقر إلى الحيوية، سلبيتها تفقدني صوابي، في حين أن رابونزل التي شاهدناها على شاشة السينما في فيلم ديزني «Tangled » شيءٌ آخر

تمامًا.

لقد أعادت ديزني خلق رابونزل وبثت فيها الروح، إذ صاغتها شخصية ممعنة في الحيوية والفضول، ورغم كونها حبيسة البرج إلا أنها كانت تستثمر كل دقيقة من حياتها في اكتشاف العالم واكتشاف ذاتها، فهي تقرأ وترسم وتطبخ وتخبز وتخيط وتعتني بجمال المكان، لقد صنعت ديزني فتاةً رائعة، فاعلة ومتوثبة، وجعلتها صاحبة المبادرة والفضل في مغادرتها للبرج، عندما أجبرت الشاب الذي تسلل إلى البرج، رغم كونِه لصًّا، على أن يخرجها من البرج لتكتشف العالم.

في البداية لم أفهم سر تعلقي الشديد بالفيلم، ولماذا لا أمانع التفرج عليه عدة مرات في اليوم الواحد. لم أفهم حقيقة الأمر حتى انتبهتُ إلى ذلك المقطع الذي تذكرت فيه رابونزل حقيقتها، عندما واجهت الساحرة الشريرة قائلةً: «لقد كنتِ مخطئة بشأني، وبشأن العالم أيضًا».

تحرّرت رابونزل عندما تمردت على الوصاية التي فرضتها عليها الساحرة، على فكرةِ أن العالم مكان شرير وأنها غير مهيّئة للعيش فيه، كان تحرر رابونزل ذهنيًا وسابقًا لكسرِ القيد، ومغادرة البرج. شيء ما ذكرني بنفسي هنا، في الواقع، لقد ذكرني هذا المقطع بكل امرأة وكل فتاة عرفتها في حياتي، وبكل أنثى يمكن أن تولد في هذا الجزء من العالم، حيث تتم تنشئتنا على أفكارٍ على شاكلة: الدنيا مالها أمان، العالم مكان مخيف، الرجال ذئاب بشرية، الفتاة لؤلؤة مصونة يجب إبقاؤها في الخفاء، الأنثى ضعيفة ويجب

المحافظة على ضعفها عن طريق منعها من الحياة. لقد علمونا الخوف، وضعونا في أبراجٍ بلا أبواب، وطلبوا منا أن ننتظر المخلص، رجل الحلال، فارس الأحلام، الذي نكتشف في كثيرٍ من الحالات بأنه سجانٌ آخر. لقد لوثوا البراءة بالخمول، وجعلوا من النموذج «الرابونزلي» نموذج الفتاة الفاضلة، يوم صار الشرف قرين الجهل. أنتم مخطئون بشأننا، وبشأن العالم أيضًا. أتساءل كم امرأة قالتها، ولو لنفسها، في مرحلةٍ ما من حياتها؟

إنني أعيش في عالمٍ تتزاحم فيه الأبراج، والرابونزلات في داخلها، وطبعًا يفتقر إلى الأمراء بشكلٍ فاضح، ولكنني أرى في المقابل أن الكثيرات لم يستسلمن لـنموذج رابونزل القصص المصورة المملة، وكن بالأحرى أشبه بـرابونزل ديزني، فأغلبهنّ عملن إلى إعادة خلق علاقتهن بالعالم، وإعادة خلق ذواتهن أيضًا، واكتشاف نداءهن الداخلي، لقد أمعنت المرأة في صناعة الجمال وتكريسه والإصرار عليه، حتى وهي عاجزة عن مغادرة برج العائلة أو القبيلة أو المجتمع أو التقاليد، وإذا كان البعض منا قد قطع أشواطاً أبعد، وربما صنع في البرج نوافذ أوسع، وسلالم تصل إلى العالم، وإذا كانت هناك كثيرات لم ينتظرن مجيء المخلّص، وعمدن إلى مغادرة أبراجهن دونما رجعة، فإن الحقيقة أنهن جميعًا مناضلات، ما فتئن يحاولن، وسيحاولن دائمًا.

في فيلم ديزني، كان تحرر رابونزل مرتبطًا بتخلّصها من شعرها الأشقر الطويل ذي القدرات الخارقة، كانت بمعنى آخر بحاجة لأن تضحي بموهبتها من أجل أن تنقذ ذاتها، ولكن بالنسبة لرابونزل العربية، التي تستعيد كل يوم

شبرًا من حريّتها، فسيكون خلاصها دائمًا عبر نافذة الموهبة وحدها. أنا متأكدة.

حملة اشهق

هوايتي الجديدة هي الدخول إلى المتاجر البرجوازية لأسأل البائع عن السعر، ثم أشهق.

مثال: لو سمحت بكم هذه الشنطة؟ كم؟ هل قلت 1650 دينار؟ (شهقة). من أجل مزيدٍ من الدراما سوف أضرب بكفّي على نحري إمعانًا في إظهار رعبي. وإذا سمحت الظروف، سوف ألطم وأولول.

الهدف من الحملة هو أن أشعر البائع بتأنيب الضمير حتى يستقيل. إنها خطة شيطانية! تهاجم الماركات العالمية في عقر دارها. موظفًا بعد آخر، سوف نطيح بالرأسمالية من جذورها!

هذا البائع المسحوق والمطحون الذي لا يساوي راتبه الشهري ربع حقيبة شانيل، أريد أن أراه مليئًا بالذنب، باللا فهم، بالحيرة. أحتاج أن أراه يركض في الـ «غراند أفنيوز» وهو يصيح بأن الأمر محض هراء. أحتاج أن أسمعه يهمس للزبائن بأن تكلفة الحقيقة للحقيبة هي 10% من سعرها.

هذه حملة تستهدف القضاء على تغوّل الشركات، سوف نسمّيها (حملة اشهق). سوف نشعل شرارة الربيع البضائعي، سنقيم ثورة بحيث تساوي الأشياء قيمتها الحقيقية وحسب؛ بحيث تسمى الأشياء بأسمائها.

اشهق معي عزيزي البائع، اشهق معي عزيزي المشتري! فالحقيبة التي تباع بـ 1650 دينار أو 4500 دولار بعد أن قاموا من أجل صناعتها بقتلِ وسلخ تمساحين كبيرين هي فضيحة أخلاقية قبل أي شيء.

اشهق من أجل الإنسان الذي تحوّل إلى إله، وبات يستخدم الكائنات الأخرى مثل مواد البناء، مثل الرمل والخشب، كما لو لم تكن حية في يوم، كما لو لم يكن لحياتها معنىً قط.

اشهق أيضًا، من أجل الإنسان الذي تحوّل إلى إله يستعبد الإنسان بحقيبة وحذاء. وأوهمه بأنَّ لا قيمة له دون الحزام الفيندي الملتف على خاصرته. اشهق من أجل عبودية المادة، من أجل الشركات الكبرى التي ازدادت فحشًا على حسابِ المعنى والقيمة والإنسانية. اشهق لأن الحقيبة والمحفظة والحذاء تحولت إلى أدوات لتعزيز التباين الطبقي وخلق الفوارق بين الناس. اشهق لأن هذه الحقيبة التي تريد أن تضعها على كتفك، على الأرجح عمل على صنعها 20 طفل هندي معدم مقابل قوت يومهم، رغم كل التشريعات الفارغة التي تمنع توظيف الأطفال في المصانع.

اشهق لأن الأم الهندية التي سهرت في إعداد نسيج «الشال» الحريري

الفاخر كانت تشعر بالبردِ والجوعِ والإعياءِ مقابل أن تحصل على دولار في الشهر..

اشهق معي لو سمحت، برهن على حريّتك.

أعيدوا لنا بغداد التي لم نعرفها

بالأمس وصلتني رسالة من قارئ عراقي، رسالة تقول: أتمنى أن أجد كتبك في شارع المتنبي.

رسالة تشبهُ الذّبحة الصدرية، تشبه الحنين، تشبهُ بحة السيّاب وهو يصيحُ في الخليج يا خليج، تشبهُ الأطلال الطينية في نحيبِ مظفر وهو يمتصّ الحانات ولا يسكر، تشبهُ العذوية الفراتية لنازك وهي تبحثُ لحبيبها عن قرآنٍ هديّة. عراق الحنين، عراقُ الإنسان الجميل، المتطرّف حبّا والمتطرّف غضبًا والموغل عميقا في أحراشِ العاطفة.

ولأنني كويتية، فأنا أشعر بأن بيني وبين العراق علاقة حبٍ انتهت قبل أن تبدأ، وقبل أن أعرف بأنه توجد على الكرة الأرضية بلاد اسمها عراق، عرفتُ بأن بلادي قد احتلّت من بلادٍ اسمها عراق، وكان عليّ في ذلك الوقت أن أتهجى كلمات جديدة: رشاش، غزو، دبابة، بترول، حرب، أمريكا. كلمات

تشكّل وجه العالم، كان عليّ أن أتعلمها، حتى فاتني أن أتعلّمك يا عراق، أن أعرفك وأن أحبّك.

وقبل أن أراك، قبل أن أتوضأ في الفرات وأبكي على كتفِ دجلة، نبت هذا الجدارُ المستحيل وغير المرئي بيني وبينك، وأصبحت مجهولًا بالكامل، وأصبحت العراق دموع عيني – أنا أيضًا – يا مظفر.

ومنذ طفلة الثامنة وحتى المرأة التي صرتُها على سبيل الفجيعةِ، وأنا أحاول أن أشرئبّ بعنقي كي أعرف ماذا يحدث خلف ذلك الجدار. الوطن المسروق، الرازح تحت الانقسامِ، والإرهاب الأمريكي الذي تباركه كلّ الدنيا. تفجيرات طائفية ودمٌ كثير، ولكن العراق أكثر من كل هذا. العراق إنانا وعشتار، جلجامش وأنكيدو وتموز، البياتي والجواهري، السياب ومظفر ونازك ولميعة، عراق العذوبة في روايات فؤاد التكرلي وسنان أنطون وعلي بدر. عراقُ الخصبِ والعشبِ والحبّ، ماذا بقي منه، وماذا فعل به العالم؟

بعد تحرير الكويت بأيامٍ كنا نحتفل بعودةٍ قريبنا من الأسر، وجلسنا حوله ليقصّ علينا يومياته هناك، وأذكر أنه بدأ يقلّد ما قاله الجنديّ العراقي باللهجة العراقية قبل إطلاق سراحهم؛ «يالله يابه هسه من يريد يطلع يتوضا؟»، وأنا.. بنت التسع سنوات المولعة بالكلمات وأصواتها رحت أكركر وأعيدُ العبارة. وبخني الكبار يومها. قالوا لي لا تتحدثي مثل غزاتنا. الكويت تحررت ونريد أن ننسى. وتحوّل العراق كله إلى وجهِ صدام حسين، وجه الطاغية مرتكب المجازر، عراقُ الجمال والحضارة تم تغييبه تحت طبقاتٍ

سميكة من ملامح الديكتاتور.

مضت 23 عامًا. وأشعر بالقهرِ من كل الأشياء الجميلة التي لم تحدث، أشعر بالقهر لأننا لا نزور بغداد كما نزور بيروت ودبي والقاهرة، أشعر بالقهرِ من كل الاحتمالات الباهية التي سرقها الأوغاد من الساسة، وأشعر بأنه قد تمت خديعتي تقريبًا. مسخت ذاكرتي، صودر حقي في أن أعرف العراق، لا عراق صدام حسين ولا عراق أمريكا. بل عراق السيّاب الذي قال عنه:

الشمس أجمل في بلادي من سواها،

والظلام

حتى الظلام هناك أجمل،

فهو يحتضن العراق

أعيدوه لنا، هذا العراق الذي لم نعرفه. أعيدوه!

هواجس نسوية في متجر الألعاب

يخيفني أن الغالبية العظمى من لعب البنات مصممة لتهيأتهنّ لدورهن الأمومي.

وأنا أبحث عن هدية لطفلتي التي أتمّت عامها الثاني، أرعبني أن أتخيّلها طفلة تلعب بطفل. ترضعه وتغير حفاظه وتهدهده حتى ينام. شعرتُ بأنني أسرقُ طفولتها منها من خلال لعبتها، أن أضعها في مكاني، مكان الأم، تبذل عنايتها لشخصٍ آخر، متخيّل أو مفترض، فيمَ الأجدر بها أن تعيش طفولتها بشكلٍ صريح، والطفولة عندي تعني - وهو تعريفي الصارم الذي لا يقبل النقاش - أن تركض حافية بشعر منكوش، أن تسابق الريح بدراجتها الصغيرة، أن تتسلق النخيل وهي تكركر، وأشياء أخرى متطرفة.

لا أستطيع أن أتخيّل «داليا» تتعرّض إلى هذا النوع من الاختلاس. إنهم يدمجون متعة اللعب بمشقة الدور الاجتماعي الذي قرّروه من أجلها.

تقولُ لي ما هي مشكلة أن تنوء ابنتك بهذا الدور الجميل، السماوي، المشرّف، والذي هو دوركِ أنت؟ وأقول معك كل الحق في السؤال، إذ لا يوجدُ في حياتي ما هو أعز وأغلى من أطفالي، ولكننا لا نفعلُ الأمر بشكلٍ صحيح، وأريد لابنتي، عندما تتخذ قرار الإنجاب مع شريك حياتها، أن تفعل الأمر بوعي، وليس بخضوعٍ لا واعٍ لما قرره «النظام». إذ لا توجد أية بطولة في أن تتحول المرأة إلى أم بسبب تعرضها للبرمجة.

لا أحب دمية الطفل؛ لأنها تغرسُ في لا وعي الطفلة، وفي مرحلة مبكرة جدًا، أن عليها أن تكون أمّا عندما تكبر. وفي رأيي المتواضع، لا تصلح كل امرأة لدور الأم، فلماذا ينبغي برمجتنا جميعًا على ما يجب علينا فعله عوضًا عن أن نكتشف الأمر بأنفسنا، بكامل وعينا ودون أن نرزح تحت خوارق اللا شعور؟ وماذا لو كبرت البنت ولم تتزوج، أو تزوجت ولم تنجب. لماذا ينبغي عليها أن تشعر بهذا الكم المفجع من الفراغ والنقص والعدم، لأنها برمجت منذ الثانية أو الثالثة على وجوب أن تنجب وترضع؟

السبب الآخر، أن العلبة مغلفة بالوردي تمامًا، وهذا يعني أن الأولاد لن يقتربوا بها. إنهم يتعاملون مع اللون الوردي وكأنه الجذام. هذه اللعبة الوردية تقولُ، بشكلٍ صريح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أن العناية بالطفل هي مهمة الأنثى وحدها. ولهذا السبب أنشأنا أجيالا وأجيالا من الرجال الذين هم ليسوا شجعانا بما يكفي لحمل طفلٍ رضيع. كم مرة سمعت رجلا يقول بأنه ينتظر أن يتم ابنه شهره السادس حتى يتجرأ ويحمله؟ لقد تمت برمجتهم

أيضًا، بأن هذه هي مهمة الأنثى.

نعم، لا أريد لداليا أن تكون أما بلا وعي، فهذه المهمة المقدسة – بكل معنى الكلمة – يجب القيام بها بانتباه. وحتى تحين تلك اللحظة، سوف أشتري لابنتي أرجوحة..

فصام

في متجرِ الألعاب ينقسمُ المكان بين وردي وأزرق.

في الجزءِ الأزرق نجد السيّارات والرّجال المحاربين وألعاب «الروبوت» وأدوات النجارة وعالمٌ يتمحورُ بشكلٍ كبيرٍ حول التقنية. في القسمِ الوردي هناك العرائس والدمى والفساتين، وهناك أيضًا أطقم الشاي، ألعاب المطبخ، عربة السوبر ماركت والكثير من الخضار والفواكه البلاستيكية، علب الفاصولياء والذرة والمخللات. بطريقةٍ أو بأخرى، ومنذ البداية نقرّرُ، بالنيابةِ عن أولادنا وبناتنا، ما يناسبُ كل منهم.

عندما بلغ ولدي الثلاث سنوات أهديتهُ مطبخًا، وكان عليّ أن أتغاضى عن الفتاة الضاحكة على الغلاف الوردي للمطبخ، وأن أركّز على حقيقة أن المطابخ تستهويه وأن لا شيء يمتعه أكثر من تقطيع لعبة الجزرة. من حق ولدي أن يكتشف المطبخ ومن واجبي أن أهديه لعبة تعزز شغفه.

في طفولتي أصابني ولعٌ بالسيّارات، بعد أن تعرفت على مسلسل

«السباق الكبير» الكرتوني. كنتُ أمضي ساعاتٍ من يومي بصحبة سيارتي، لم تشاركني أي من صديقاتي ذلك الشغف؛ لأن الخروج عن الجغرافيا الوردية ليس آمنًا ومن شأنه أن يسبب اهتزازًا في الهُوية.

الآن، بعد أن انتقلتُ إلى عالمِ الكبار عرفتُ بأن أغلب طهاة المطابخ الفاخرة هم في الحقيقة رجال، ومعظم مصممي الأزياء كذلك، وتعرّفت على سيدتين تديران كراجا لتصليح أعطال السيارات، وهو الأمر الذي أحدث راحة كبيرة لمئات الحالات من النساء ممن لا يستطعن الاعتماد على رجل لإصلاح عطل أو عمل «سيرفس» مثلاً، سواء كانت امرأة مطلقة أو وحيدة أو ببساطة غير راغبة بالاعتماد على غيرها.

قبل أن تحصل المرأة في الكويت على حقوقها السياسية، كانت حجة «المعسكر الضد» هي: قبل أن تصبح المرأة عضوًا في البرلمان فلتقم بإصلاح «البنشر» بنفسها. سأفعلُ لو علمني أحدٌ الطريقة، كنتُ أرد. لا أدري لماذا يفترضُ الناس أن إصلاح عطل السيارة مهمة مستحيلة على العقل الأنثوي، العقل نفسه الذي برع في الفيزياء والرياضيات طوال قرون؟ إذا كنتُ لا أستطيع تولي هذه المهمة اليوم، فلأن أحدًا لم يقم بتثقيفي في هذا الجانب، على أساس أنني لن أحتاج إليه أبدًا.

اتضح لي أن الذكورية التي نحاربها بوصفنا نساءً تجني على الرجال كثيرًا، والأجدر بهم أن يحاربوها معنا، في الصفوف الأولى على الجبهة. عندما يقرّر الرجل أن المرأة لا تستطيع تعليق لوحة، أو إصلاح دراجة، أو قيادة

السيارة، فسيكون عليهِ أن يكون السمكري والنجار والسائق طوال حياته، سيكون عليهِ البحث عن بدائل طوال الوقت، يجري المكالمات ويتفق مع المتخصصين أو يشمر عن ساعديه وينقذ الموقف، سيكونُ على الرجل أن ينقذ الموقف دائمًا لأنه يعتقدُ أن المرأة عاجزة، والحقيقة أنها ليست عاجزة أبدًا، بل غير مدربة، وتحمل في أعماقها عشرات السنين من البرمجة النفسية التي قررت بالنيابة عن الطرفين أيهما وردي وأيهما أزرق، وتغاضت عن ألوانٍ كثيرةٍ جدًا بين الاثنين.

إنني أشفق على «الشيف» الرجل الذي يقرر العالم، بالنيابة عنه، أن المطبخ هو مكان النساء، ضاربا بإبداعه وشغفه وجهوده عرض الحائط، بقدر ما أشفق على الكاتبة الأنثى، التي يقرر العالم بالنيابة عنها بأن الكتابة هي «فعل الرجال» على حد تعبير د. سعاد الصباح. إننا نضع القوانين قبل أن نكتشف فرادة الإنسان، وعليهُ فنحن نخنقه ونسحقُ إمكانياته دون تردد، عندما ينقسمُ العالم، منذ متجر الألعاب، إلى وردي وأزرق، فإن مواهبَ كثيرة تُقبر في الألوان التي لم يكتشفها أحد.

البطل الحقيقي يلهو وحيدًا

{هناك من لا يستطيع أن يلهو إلا في قطيع، البطلُ الحقيقيُّ يلهو وحيدًا}. (بودلير).

أشعرُ بأن العالم مصمّمٌ من أجل تقويض وحدتي. يقومُ على مهلهِ بتفتيتها؛ في البيت، في المقهى، في المدرسة، في الوظيفة. أنت محاصر في وحدتك ومطالب بالتخلي عنها طوال الوقت.

في زمنٍ ما كانت أدراج التلاميذ في فصول المدارس مرتبة في صفوف، مما يتيح للطالب أن يجلسَ مع نفسه ويفكّر. الآن باتت المدارس كلها تتجه إلى تكوين مجاميع دراسية داخل الفصول، أدراج الطلبة يقابل بعضها البعض ومعظم عمليات حل التمارين تحدث بشكلٍ جماعي.

في الماضي كانت الشركات والدوائر الحكومية تتكون من مكاتب مغلقة. كان بإمكان الموظف أن يعمل وحيدًا وأن يغلق الباب أيضًا وأن يتفرغ لإنجاز عمله. الآن تحوّلت هذه الدوائر الحكومية والشركات إلى نظام «البارتيشنز» أو الأقسام؛ مكاتب منتشرة في القاعة لا يفصل بين الموظف والآخر إلا عازل

زجاجي أو جبسن بورد.

عندما استلمتُ مكتبي في الوزارة كنتُ أكثر من سعيدة بالحصول على مكتبٍ يقابلُ الجدار، حتى لا أضطر إلى مجاورةِ أحد، مجاملة أحد، وإهدار كل هذا الوقت على الفطور الجماعي وآخر أخبار الخادمات الهاربات ونحوه. كان أمرًا واضحًا بالنسبة لي، أنني أحتاج كل دقيقة فراغ لكي أنجز نصوصي وقراءاتي المعطّلة، بعد أن أقوم بواجباتي الوظيفية. لقد حصلتُ على هذا المكتب الاستراتيجي بالحظ المحض، وشعرتُ بأن الإله الرحيم يرأف بي ويدرك محدودية قدرتي على مخالطة البشر بهذا الشكل المستباح لسبع ساعات، هذا الجدار الذي يقابلني، هو جاري الأثير الذي لا أستبدله بأي أحدٍ مهما كان هذا الشخص لطيفًا وظريفًا. إنه أفضل شيءٍ حصل لي تقريبًا.

من الغريب أن تفكّر بأن العالم يطاردك في وحدتك. يدينها ويستنكرها ويريدُ لكل شيءٍ أن يحدث تحت عين المجتمع. المجتمع ذاته الذي يرفض أن تقرأ لأن «القراءة مملة» ولا يمانع أن تجلس في مقهى لأربع ساعاتٍ، تشرب الشاي وتدخن الأرجيلة، طالما أنك تفعل ذلك بوجود آخرين.

عوضًا عن استبطانِ الذات والتأمّل صار التفكير يتم بمعية الجماعة فيما يعرف بالعصف الذهني. العصف الذهني قد يكون ملائمًا لأولئك الذين لا يستطيعون خلق أفكار، وإنما يستطيعون تطوير أفكار غيرهم، الذين لا يستطيعون التفكير إلا مع غيرهم، ولكن لماذا يجب على أولئك القادرين على التفكير والخلق والابتكار – مكتفين بذواتهم – أن يدفعوا ثمنًا باهظاً لذلك؟ أن

يوضعوا في البيئة ذاتها التي تشل بالكامل قدراتهم على الخلق والابتكار؟

إنني أفكر بما كان يمكن أن يحدث لو تمت محاصرة جميع المفكرين والفلاسفة والفنانين من «عشاق الوحدة» مثل جورج أورويل وجان جاك روسو وألبير كامو وفريجينا وولف ووليم بليك وإدغار آلان بو وجون لينون وآينشتاين ودارون وابراهام لينكولن وعمانويل كانط وغيرهم، ممن أثبتت الدراسات أنهم شخصيات منطوية، من المخيف أن تتم محاصرة هؤلاء في وحدتهم، الأمر يشبه أن تجفف نبعًا. لو لم يحصل هؤلاء على حقهم من «الوحدة»، ماذا كان العالم ليخسر؟

أيمن بائع الرمان

صباح الخير يا أيمن.

أنت لا تعرفني. أنا المرأة التي تشتري منك الرمّان أحيانًا. سيارتي سماوية مليئة بالرّضوض، طلاؤها يتقشّر في الجزء الأمامي. إنني أفترض أنك تعرفُ هذه التفاصيل، أفترضُ أنك، مثل جميع الأولاد، مولعٌ بالسيارات.

أنا لا أحبّ الرمان، ولا حتى عصيره، ولكنني أخجل منك، ومن أسئلة أطفالي، فأشتري منك. يقول لي ابني كل يوم، عندما نمرّ بك وأنت جالسٌ على الرصيف: لماذا لا تشترين من أيمن اليوم؟ لماذا لا تساعدينه حتى يعود إلى البيت؟

في ذلك اليوم كنتَ ترتجف وكانت الظهيرة لاهبة. قلتُ في نفسي سيصاب هذا الولد بضربة شمس. كل يوم أمرُّ بك أتذكر الوعد الذي قطعناه بأن نهديك مظلة، كل يوم أتذكّر وأنسى. مرورنا اليومي بك، ونحن ننفرُ في الحرِّ، يعيدنا إلى قبحنا الذي قررنا ألا نراه. سألتك مرة: أنت بدون؟ قلت لا، أنا

سوري. كان يجدر بي أن أعرف، من لون شعرك وعينيك، ولكن المآسي تكاثرت أكثر من اللازم يا صغيري.

كل مرة أمرُّ بك، أتساءل أيّ الجُرمين أفدح، أن أشتري الرمان أم ألا أشتريه. إذا اشتريتُ رمّانك يا أيمن، فأنا أقبل ضمنا باستخدام الأطفال كعمالة، أقبل بما أرفضه، ولكنني أساعدك على أن تعود إلى بيتك أبكر قليلا. وإذا لم أشترِ الرمان، فسأكون متوافقة مع مبادئي، ولكنني سأقبل احتمال أن تجوع، أنت وأمك وأخوتك. احتمال أن يضربك رئيسك الذي يجلبك بسيارته كل يوم إلى رصيف «الخالدية» لكي تبيع الرمّان. بين «الخالدية» في الكويت و»الخالدية» في سوريا خيوط دم.

هل ترى، يا صديقي؟ الخيارات كلها رخيصة وجائرة. أنت جائع وأنا لا أحبّ الرمّان، لا أستطيع أن أشتري رمّانك كل يوم. ولكنني لا أستطيع أن أراك على الرصيف أيضًا، كل يوم.

سأخبرك عن رواية «عداء الطائرة الورقية» لخالد حسيني، أتمنى أن تقرأها عندما تكبر؛ في ملجأ الأيتام كان أحد رجال الطالبان يأتي مع بعض المال، يسلّم المال لمدير الملجأ ويأخذ معه طفلة أو طفل. طفل «وظيفي» يا أيمن، يستخدمه ثم يعيده، وأحيانًا لا يعود. كان أمام مدير الملجأ خياران فقط، الخيار الأول؛ أن يرفض المال دفاعًا عن حقوق الطفولة، ولكن هذا يعني بأن الطالبان سيأخذون عشرة أطفال، وأنه لن يكون هناك مال. الخيار الثاني؛ أن يسمح بالقبحِ بأن يحدث، أن يسلّمه طفل، أن يأخذ ماله ويطعم به بقية

الأطفال.

أريد أن أكتبك يا أيمن، حتى ألعن عالمًا يسمح بانتهاك الطفولة إلى هذا الحد، ويضعنا بين خيارين متماثلين: أن تكون شريكا في الجريمة (1)، أو شريكا في الجريمة (2).

اللعنة يا أيمن!

صباح الخير يا صديقي.

أيها الرجل الصغير،

صباح الخير أيها الحُر.

سأحبُّ الرمّان من أجلك.

مرشحة الجميع

كان عمري ثلاثة عشرة عامًا عندما قررتُ أن أخوض انتخابات «مجلس الطالبات». قلتُ لنفسي: هذه هي سنتي الأخيرة في المرحلة المتوسطة وسوف أجعلها أكثر قابلية للتذكر. سوف أرشح نفسي لعضوية هذا الذي يسمونه مجلس الطالبات!

لم أكن أعرف معنى أن تكون عضوًا، ومعنى أن يكون هناك مجلس للطالبات. ما حاجتنا به؟ كل شيءٍ جيّد والحياة حلوة، المدرّسات لطيفات، والواجبات المدرسية رغم ثقلها إلا أنها ضرورية. إذن ما الداعي لهذا المجلس؟ من اخترع هذه الفكرة؟ أن يكون هناك جمهور، وممثلون عن الجمهور.. إنها فكرةٌ غريبة بالفعل! في رأسي ذي الثلاثة عشر عامًا، كانت الديموقراطية كلمة فائضة، وكان مجلس الطالبات هو مجلس البريستيج قبل أي شيء، وأنا أردتُ أن أحظى بعضوية مجلس البريستيج، وأن أجرب الديموقراطية على سبيل التجربة.

لم أكن أملكُ برنامجًا ورؤى. لم أعرف حتى بأن عليّ أن أمتلك برنامجًا

ورؤى. قالوا بأنّ هناك مجلس للطالبات وقلنا سنجرّب! لم تكن لديّ أفكار إصلاحية، أو مفسِدة، أو تنفيعية. لم أكن ملائمة لرفع سقف الحرية ولم أكن أصلح كـ «نائب خدمات» أيضًا. لستُ من النوع «القبّيض» أو الفاسد أو المُؤَزِّم أو الغوغائي أو الانبطاحي. لم يكن لدي وجهة نظر حيال أي شيء يتعلق بأي شيء. ولكن الفضول يقتلني لتجربة الديموقراطية، قلتُ سأجرّب..

على أية حال، لم أكن بذلك السّوء، ولا أعتقد بأن أي واحدة من المرشحات كانت تفقه ما تفعله، رؤى إصلاحية؟ إن لم يكن مكسورًا فلماذا تصلحه؟ نريدُ مجلس الطالبات لأنه الموضة الجديدة، كل الفتيات يحببن الموضة! وأنا، لماذا عليّ أن أكون مختلفة؟

فكّرتُ مليًا بما يجدر بي فعله لأفوز، فالخسارة من شأنها أن تكون محرجةً جدًا، لاسيما وأنني عضوٌ مُخضرم في نشاط الإذاعة، وهذا يجعلني من «مشاهير» مجتمع المدرسة، وجهي مألوف، ومن شأن الخسارة أن تفقدني ماءه! وهكذا قررتُ أن تكون لي أكبر لوحة إعلان في المدرسة لأن الفتيات يكترثن لهذه الأمور، تناسق الألوان وحجم الخطوط وكل هذه التفاصيل، كان عليّ أن أبرع بها.

اشتريتُ أكبر لوحةٍ ممكنة، وكتبتُ عليها «انتخبوا مرشحة الجميع بثينة العيسى»، هكذا فقط، باستثناء أن اسمي كان ضخمًا، بل عملاقًا، وكان لكل حرفٍ لون، ولكل نقطة لون، ومن حسن حظي أن لاسمي خمسة أحرف

وتسعة نقاط. كانت فرصة لكي تمتلئ اللوحة بالألوان. أصدقكم القول، لقد كانت لوحة ربيعية بامتياز، تضمّ كل ألوان قوس قزح، منذ الأحمر وحتى البنفسجي، وكان اسمي يلمعُ ويسطعُ ويبرقُ ويخطف أبصار البُنيّاتِ بلا رحمة.

لقد كانت لوحةً رائعة، وأنا لا أقولُ ذلك لأنها لوحتي، والحق أن ترشيحي للانتخابات لم يكلفني إلا هذه اللوحة، على عكس كثيراتٍ غيري ملأن الممرات بأسمائهن. من يحتاج إلى كل هذا التكرار؟ قلتُ لنفسي سأحترمُ ذاكرة القارئ وسأضع اسمي مرة واحدة، مرة ملونة جدًا تقولُ للمشاهد: انتخبني وسأملأ حياتك بالفرح.

كنتُ على حق. فهذا كل ما كلفني لكي أفوز. ولم يكن فوزًا عاديًا، فقد فزتُ بالمركز الأول، وفي ذلك اليوم هدر التصفيق في «الطابور الصباحي» وشعرتُ بعيني تسحّانِ بانفعالٍ وفرح، لقد أعجبتهم لوحتي! لقد صرتُ ممثلةً للأمة، صرتُ خيار الشعب! والآن آن الأوان لكي أكتشف ما يعنيه ذلك..

ماذا حدث بعدها؟

الأمرُ المعتاد.

كان مجلسًا بلا إنجازات. مُنِحَتْ صديقتي كرسيّ الرئاسة لأن الاختصاصية الاجتماعية كانت صديقةً لأمها، رغم أن غالبية الأعضاء صوتن

لي، بالتأكيد لم يكن لاعتراضي أي معنى. المسرحية المدرسية التي أعددناها عن آثار الطلاق كانت كارثة فنية وموضوعية بجميع المقاييس. استمر الفساد الذي لم أكن أعرف بشأنه، فساد الواسطة والبرامج الـ «أي كلام» والفراغ الثقافي والتكتلات الفارغة. نعم كانت هناك كتل سياسية على أساس أيديولوجي مثل « لوننا المفضل هو الوردي» و«لا نسمح بعضوية الشقراوات» وأشياء أخرى. اتضح أن كل تلميذة في المدرسة هي مشروع «فداوي» للناظرة والوكيلة، ولم يكن ينقصنا إلا أن نهتف في الساحة «بالروح بالدم نفديك يا أبلة مديحة»، ثمّ.. هل كانوا جادين بهذا الشأن حقًّا؟ أعني، هل يفترض أن أهمل دروسي وحصصي لكي أتفرغ لجلساتهم؟ لا تنمية، لا حضور جلسات، لم نجتمع إلا أربعة مرات طوال العام. لا شيء تغيّر أبدًا بالنسبة للمدرسة والطالبات اللاتي نمثلهن.

كانت تجربة ديموقراطية عربية، بجميع المقاييس.

أما عنّي أنا؛ فقد أشبعت فضولي.

جنّة النخبة

عندما أرى أشخاصًا يتجادلون بحدّة حول المسائل الذوقية.. أخاف.

لأن هذا يعني أنّنا أمام أشخاص يريدون أن يتحولوا من متذوقين للفن إلى سلطة تمنح وتمنع الشرعية الفنية. أشخاص يُملون عليك ما هو جميل وما هو لا. ما هو جيّد وما هو رديء. ما هو حلالٌ في الفن، وما هو محرّم.

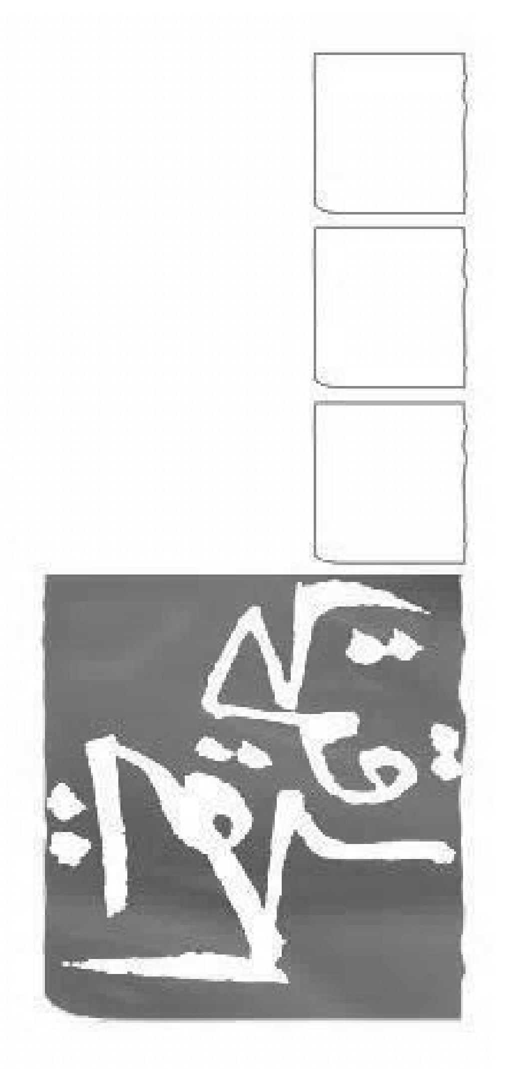
هذا يعني أننا أمام شخص خرج من كونه متذوقًا إلى كونه مفتيًا. ونحن نرزح تحت وطأة ملايين الفتاوى التي تحطُّ من إنسانيتنا وتنتهك عقولنا في كل صغيرة وكبيرة، ولا ينقصنا إلا شخصًا يفتي لنا بما هو جميل، وما هو لا. شخصًا ينقض حقك في التلقي كما يليق بخصوصيتك. شخصًا لا يحترم بصمتك القرائية، ذائقتك الفنية، جروح روحك وندوبك القديمة وكل ما يشكّل هويتك في قراءة الفن وتلقي الجمال.. شخصًا يريد أن ينسفك تمامًا لأجل أن تحبَّ ما يحب، وتكره ما يكره، وتتحوّل إلى نسخة أخرى منه هو؛ الطاغية المبجّل رغم كل قراءاته.

إذا أعجبتك رواية لم تعجبه فأنت ببساطة «لا تفهم». أو أنت في أحسن الأحوال قارئ أو متذوق عادي، ولست نخبويًا بما يكفي لكي تنضم إلى مجلسه المبارك، وتنال صكوك الثقافة التي تدخل بها إلى جنته، جنة النخبة.

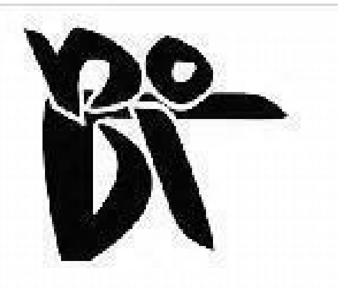
عندما أرى أشخاصًا يتجادلون بحدّة في المسائل الذوقية.. أخاف كثيرًا. لأن هذا يعني أنّ هؤلاء الأشخاص، رغم كل ما قرؤوه، لا يؤمنون بالحرية ولا يملكون فهمًا حقيقيًا لما تعنيه. وهذا يعني أن ثقافة «اليونيفورم» والتسطيح والقولبة التي حاربناها في المدارس والبيوت والمساجد، سنحاربها أيضًا في الروايات والدواوين وملتقيات المثقفين. وهذا يعني أن كل ما كتبوه ضد الطغيان السياسي والديني هو مجرد هراء؛ لأنهم يستميتون في كلّ لحظة لكي يتحولوا إلى طغاةٍ فكريين وثقافيين وأدبيين وفنيين، وهذا والله ما ينقصنا فعلا..

يقول روي بيتر كلارك بأن أقدم الحكم المرتبطة بالفن تنصُّ على أنه «لا جدال في المسائل الذوقية».. ولكن كل هذه المناقشات التي تتحوّل إلى جدال وزعل وتصل إلى ما يشبه التَّجهيل الأدبي (الرديف الثقافي للتخوين السياسي، والتكفير الديني)، هذه المناقشات الحادة والغاضبة بكل ما تتضمنه من لطم وشقٍ للجيوب تحسّرًا على انحطاط الذائقة.. حسنًا، إنها تخيفني كثيرًا.

الحقيقَة



الحقيقة



وردةٌ بألف تويج

لا أدري من أين جاءتنا هذه الفكرة، ولكنها جاءت.

الفكرة التي تقولُ بأن ثمّة معنىً وراء الأشياء؛ الحياة والموتُ وما بينهما. الحكمة، المغزى، البصيرة الخبيئة في التفاصيل.. أحبُّ أن أفكّر بأنها موجودة. كلّنا نحبُّ ذلك. كلنا نفضّل أن نصدّق بأن ثمة حكمة وراء أيّ شيء، من شأن ذلك أن يشعرنا بوحدةٍ أقل على هذه الأرض.

تعيش حياتك ويخيّل إليك بأنك تبحث عن المعنى، عن الجوهر الملتبس في قلبِ وردةٍ بألف تويج. أنّك تفتح التويجات، واحدًا بعد الآخر، نافذًا إلى قلبِ الوردة. تعيش مؤمنًا بأن ثمة وردة، أن للوردة قلب، أن المعنى في القلب، أن المعنى موجودٌ سلفًا، وجوده يسبق وجودك، وكلّ ما عليك فعله هو أن تبحث عنه حتى تجده.

.. في نقطةٍ معيّنة سوف تصل. بعد مسيرة منهكة استنزفت قواك جميعها، سوف تكون قد نفذت عبر التويجات الألفِ إلى المركز تمامًا، إلى

قلبِ الوردة، حيث الدائرة المتقنة. سوف تقفُ في منتصف الدائرة وتنظرُ حولك وتسأل؛ أين هو؟ أين هو المعنى؟ لا شيء هنا، لماذا لا أراه؟

في البدءِ ستشعر بأن المعنى هو محض خديعة، أن حدسك خائن، وأن الصوت الداخلي الذي كان يناديك للدخول، هذا الصوت الذي يأخذك بعيدًا وقريبًا، هو محض وهمٍ آخر اخترعته أنت، فها أنت هنا، تقفُ في قلبِ الوردة ولا ترى المعنى من وصولك، لا ترى شيئًا.

ستجلسُ الآن؛ لأنك متعب. ستجلسُ في قلبِ الوردة مطأطئًا، رأسك متدلية بين ساقيك المطويتين، تضمّهما إلى صدرك، تنكفئ، تتكوّر، مثل وردة مقفلة بألف تويج.

أنت وردةٌ في قلبِ الوردة.

أنت المعنى.

هل فهمتَ الآن؟

الحقيقة

أنا مستعدة لأن أكذب جاذبية نيوتن، وأصدق أن الإنسان يطير، إذا كتبها ماركيز.

أكذب أصل الأنواع لدارون، وأصدق حيوانات جورج أورويل التي تثور وتقرأ وتكتب.

أنا مستعدة لأن أصدق؛

أن الأمير الصغير موجود على كوكب فيه ثلاثة براكين ووردة يحاول تدجينها بكل الحب الممكن،

أن الأقزام السبعة ما زالوا يعيشون في الغابة، ولم تبتلعهم الآلة الرأسمالية الضخمة إلى إعلانات التلفزيون،

أن الأرنب سعيد داخل القبعة،

وأن الجنية الطيبة ستحول الرصاص إلى ورد يتساقط على أطفال

سوريا.

أنا مستعدة لأن أصدّق بورخس الذي التقى بنفسهِ في الماضي،

وأكذب ساعة معصمي.

أصدق دانتي الذي عبر المطهر والجحيم..

وأكذب رجال الدين.

أنا مستعدة لأن أختزل الثورة الفرنسية كلها، في بطل تشارلز ديكنز الذي قطعت المقصلة رأسه فداءً للحُب.

أنا مستعدة لأن أصاب بحمى راسكولنيكوف في «الجريمة والعقاب»، وأكذب كل المواعظ.

أنا مستعدة لأن أصدق كل حرف يكتبه إدواردو غاليانو، وأكذب البي بي سي.

أنا مستعدة لأن أصدّق كافكا الذي حوّل بطله إلى حشرة، وأكذب البيولوجيا الوراثية.

.. في الحقيقة، إن الحقيقة، كل الحقيقة، يصعب لها أن توجد خارج الأدب.

أن تسمي الأشياء بأسمائها

ربّما ليس من الحِكمة أن تسمّي الأشياء بأسمائِها.

تخيّل لو سمّيت الأذى بالأذى، وصار واضحًا بالنسبة لكِ كم أنت منتهك وموجوع. لقد صارَ جرحك أوضح، فماذا استفدتَ الآن؟

تخيّل لو أنك أخبرت صبيًا من ضحايا العنف المنزلي أن وابل الشتائم الذي يكالُ في أذنه ليس أمرًا «طبيعيا» رغم شيوعه، لو أنّك سمّيت الأمر باسمه وقلت: أنت ضحية عنف منزلي.

تخيّل لو أنك أخبرتَ الزوجة التي يُكرهها زوجها على السرير: هذه ليست معاشرة زوجية، بل اغتصاب.

تخيّل لو أنك أخبرت طفل السنوات الثمانية بأن آثار العقال على ظهرهِ ليس «تربية» .. بل «تعنيفًا».

تخيل لو أنك أخبرت طفلة السنوات العشر التي تساق إلى زوجها الخمسيني: هذا ليس زواجًا مبكّرا، إنه زواج قاصرات.

تخيّل لو أنك أخبرت ملايين الفتيات حول العالم بأن الجدران حولهن ليست لحمايتهن من العالم، بل لحماية العالم منهن.

ماذا استفدنا من تسمية الأشياء بأسمائها؟

تخرج من ضبابية التسميات وتدخلُ في الوضوح. من الذي يريد الوضوح في غمرة القبح؟

قرأت مرة قصة عن فتاة محبوسة في برج، لديها خزانة سحرية لا تنضب منها الفساتين ومرآة عجيبة تظهرها جميلة على الدوام، كانت الفتاة سعيدة. فهل تسمي الأشياء بأسمائها وتخبر الفتاة السعيدة بأنها مجرد سجينة غبية سعيدة بسجنها؟

هل تتخيّل حجم المسئولية الملقاة على عاتقك بعد أن تسمي الأشياء بأسمائها؟ بعد أن تسمي الجرح جرحًا، والعنف عنفًا، والحبّ حبًا؟ كيف يمكنك أن تواصل العيش في الجهل والتضليل وتتجنب مسئولية أن تعرف؟

إلى أيّ حدٍ نحكم على أنفسنا بالشقاء بسبب مجموعةٍ من الأسماء؟ أيّ نوعٍ من المسئولية وقع على كاهل آدم الذي علمه الله الأسماء كلّها؟ ماذا عساه يفعل بكل هذه الأسماء؟ بكلّ هذه المعرفة؟ كيف يسعه أن يمضي في

حياته وهو يجرجر وراءه ملايين الأسماء، ويضطر إلى استخدامها بالشكل الصحيح؟

يقول علي الظفيري: إن تسمية الأشياء بأسمائها فعلٌ واجبٌ وشجاع. الأكيد أنه يتطلب شجاعة استثنائية، ولكن هل هو واجب؟ أن تتعرف على ألمك بكل تفاصيلِه، وتطلق عليه اسمه الصحيح؟ كيف يمكنك – بعد أن تعي أبعاد جرحك – أن تغفر لجلاديك وأن تبرر لهم الأمر؟ كيف يمكنك ألا تسأل، مع إليوت: «أيُّ صفحٍ بعد كل هذي المعرفة؟»

أيُّ صفح؟

دهشة السبب من النتيجة

يدهشني الرجل المندهِش. الرجل الذي يزعم بأنه متفوق على المرأة في التفكير المنطقي والتحليلي وعلم الرياضيات، ويحكم عليها سلفًا بأنها «تتحكم بها عاطفتها»، بأنها ليست قادرة على تفسير الأشياء، ومن ثمّ على إدارة الأمور.

يدهشني الرجل الذي يعبر عن رعبهِ من المرأة وكيدها، يدهشني عندما يندهش ويتساءل: لماذا تكيد المرأة؟ يدهشني عندما يتوهّم أن الكيد هو فطرة المرأة، لا ثقافة الرجل. يدهشني عندما يتخيّل أن المرأة خبيثة بطبعها، وليس بحسب طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تسيطر على حياتها، وتخنق واقعها.

هذا الرجل المرعوب، المسكين، أريد أن أهدهد قلقه وأردد عليه: لا بأس عليك يا عزيزي، لا بأس عليك، اهدأ الآن وفكّر بالأمر. فكّر فقط، وأنت الذي «غثيت أمٍ جابتنا» بتفوقك العلمي والأكاديمي والسياسي والعقلي والأدبي أيضًا. أنت الذي احتكرت العقلانية والتفكير المنطقي لك وحدك، وتركت لنا، نحن النساء، مكيدة العاطفة وفخاخ الانفعال. أنتَ الذي حولت هذا العالم

الكروي، إلى هرم، وجلست على قمته، ثم صرت تحك رأسك بحيرة وتتساءل: لماذا تكيدُ النساء؟

عزيزي الرجل المندهش، وليس أدهشَ عندي من دهشةِ السبب من النتيجة! ماذا كنت تتوقع؟ أي سذاجةٍ هذه التي جعلتك تتصور أن بوسعك أن تكون الحكومة دون أن تتمخض عنك معارضة تستحقها؟ كيف خيّل إليك أن تكون الخصم والحكم، الجلاد والمدعي العام، أمين السر وحاجب المحكمة، القانون والقضبان والقيد في المعصم، أن تكون كل هذه الأشياء ثم تتساءل، لماذا تكيد المرأة؟ لماذا تتمرد على عالمي المتقن والرائع؟ لماذا لا تستسلم وحسب؟ لماذا لا تنصاع هذه المخلوقة العنيدة إلى «طبيعة» الأشياء. الطبيعة التي اصطنعناها اصطناعًا، ثم دعمناها ب. «شوية» نظريات علمية مشبوهة وأنساق ثقافية مريضة. لماذا لا تسلمني وحدي دون غيري، كل حياتها. لماذا تعترض عندما أقرر عنها (وأنا الأدرى بصالحها) أين تعمل وماذا تدرس وما هي التخصّصات التي تتناسب مع «أنوثتها» ومع «فحولتي» أيضًا، وإذا كان يناسبني أن تكتب أو ترسم أو تسافر أو تركض، أو تقود السيارة أو تمشي إلى البقالة، أو تخرج مع صاحباتها إلى المقهى أو أي شيء آخر. أنا لم أفعل شيئًا؛ لقد تصرفت بموجب تفوقي العقلي – الذي حققته بموجب نوعي الجنسي – وقررتُ عنها ما فيه صالحها المحض. أعني صالحي أنا! لكي تبقى الأشياء في يدي، وتحت سيطرتي. لأجل أن يبقى العالم كما هو عليه، مشطورٌ في منتصفه بين مركز وهامش، سائد ومتنحٍ، أنثى وذكر.

عجيبة أنتِ أيتها المرأة، لماذا تعاندين طبيعتك التي خلقتِ من أجلها، طبيعة الطاعة التامة؟ لماذا لا تصدّقين ما أقولهُ لكِ، وهو أن سعادتك، كل سعادتك، لا تكون إلا بإسعادي وتكييف مواهبك وقدراتك وطاقاتك من أجل ذلك؟ عجبًا لعقلك «الناقص» الذي لا يصدّق كلام الرجل المتفوّق، عقلك الناقص الذي لا يصدق إلا الصوتُ الهامس المنبثق من داخلكِ، الصوت الذي يقول: لا تكفي، لا تكفي، حياة ناقصة لا تكفي!

عزيزي الرجل المندهش، عندي لك خبرٌ مؤسف وخبرٌ سار. الخبر المؤسفُ هو أن الكيد النسوي هو طريقة من طرق التكيّف مع عالمك الذكوري، البيروقراطي، البطريركي، الذي لا تملكُ فيه المرأة قدرة كاملة على اتخاذ القرار. وسوف يستمرُّ ما دام العالم محتفظًا بشكله الهرميّ غير العادل هذا.

الخبر السارّ هو أن هذه الثقافة الشائهة يمكن تغييرها بتغيّر النظام الاجتماعي، بالتحوّل من حياة المصادرة إلى حياة المشاركة بين الطرفين، والاعتراف بالإنسانية الكاملة للاثنين. وحتى ذلك الحين، لا يحقّ لك حتى التعبير عن دهشتك، دون أن تطفو على السطح سذاجةٌ منك لا تغتفر، وعجز مخجل عن مَنْطَقَةِ العلاقات وفهمها بعقلك «المتفوق» الذي لا تبلبلهُ عاطفة النساء!

رفعت الأقلام وجفت الصحف.

فرصة عادلة

خُذ قطعة حجرٍ التقطتها من الرّصيف، ضعها في صندوق زجاجيّ في «اللوفر»، تحت إضاءة خاصّة، في قاعةٍ شاسعة. قِف قريبًا منها وراقِب روّاد المتحف يتسمّرون أمام الحجر، مأخوذين بجمالِه. الحجر لم يعُد حجرًا، لقد صار فنًا.

تُرى، هل كان الحجر فنّا منذ البداية، أم أن المكان هو الذي حوّله إلى فن؟

أعِد الحجر إلى مكانه، ضعه على الرّصيف. هل ترى؟ أحد رواد المتحف يخرج الآن، يمشي على الرصيف، يركل الحجر ويمضي. إنه لا يراهُ حتى.

خُذ قميصًا رخيصًا من سوقٍ شعبي وألصِق عليهِ علامة «ديور» وتأمّل كيف سيتحوّل، خلال لحظات، من قميص رخيص، إلى عمل إبداعي عظيم.

خُذ قصيدة لشاعرٍ مغمور وضع عليها اسم «بودلير» أو «رامبو»

وتفرّج على الحفلات الصاخبة التي سيقيمها النقاد.

إلى أي حدٍ نحن نخضع لبرمجةٍ خارجية، تقرّر لنا، ما هو جميل؟ وإذا كانت هناك مؤسسات دينية واجتماعية تقرّر لنا كل يوم، الصواب والخطأ، والمباح والمحرّم، فهل توجد أيضًا مأسسة للجمال؟

تعتقد بأنّك حُر في الطريقة التي تتلقّى بها لوحة أو قصيدة أو رواية أو شجرة أو صدفة بحرية أو قوقعة حلزون؟ فكّر ثانية. عبوديّتك الحقيقية بدأت عندما توهّمتَ أنك حُر. هناك نظامٌ كاملٌ يحاول إيهامك بذلك، للسيطرة عليك.

فكّر الآن بفداحةِ الخسارة التي نتكبّدها بسبب هذا النظام. بكمّ الجمال الهائل، الكثير والمجاني، الذي لا نراهُ لأنه لا يحملُ الاسم الصحيح، ولا يوجد في المكان الصحيح.

هل سبق ولاحظتَ تلك القماشة السوداء التي تثبت بالقرب من عينِ الحصان لكيلا يلتفت حوله، ولا ينظرُ إلا أمامه؟ لقد وضعوا قماشةً كهذه على عينيك أنت أيضًا. لقد حجبوا عنك الفضاء، وأقنعوك بطريقٍ واحد، بشكل واحد للجمال، يتوافق مع مصالحهم.

أمامنا الآن خياران. الخيار الأول هو أن نكفر بالجمالِ إطلاقًا. ففي نهايةِ الأمر، حتى حقيبة فيندي الفاخرة صنعت في دول شرق آسيا، بأيدي الجياع؛ الأصالة في الجمال فكرة متوهمة.

الخيارُ الثاني، هو أن يتحول العالم كله إلى متحف. كل حجر، كل ورقة شجر، كل يرقة كل فراشة كل عصفور، كل قصيدة كل قصة كل لوحة كل قميص رخيص. كل شيءٍ يجب أن يمتلك فرصة عادلة لكي يمنحك جماله..

عنّي أنا، اخترتُ الثاني.

الجريمة الكامنة بداخلنا

في عام 1963 قام الدكتور ستانلي ميلغرام من جامعة ييل بإجراء تجربة نفسية لاختبار قابلية الإنسان للامتثال إلى الأوامر الصادرة عن السلطة. كانت التجربة تقتضي أن تأمر الأشخاص الخاضعين للاختبار بتعذيب آخرين بالصعق بالكهرباء، ورغم لا أخلاقية التعذيب إلا أن أغلب المشاركين في الاختبار قد امتثلوا للأمر دون كثيرٍ من التردّد بمجرد ما يتم تذكيرهم بأنها «الأوامر».

لدواعٍ أخلاقية، كان الشخص الذي يتعرض للصعق مجرد ممثل يشارك في التجربة من خلال تظاهره بالألم. ولكن النتيجة المفجعة لهذه التجربة أظهرت بأن ثلثيّ العينة لم يجدوا غضاضة في إلحاق الأذى بالآخرين وتعذيبهم بسبب صدور هذه الأوامر من سلطة رسمية. أي أننا، كبشر، نبرعُ في الطاعة إلى حدّ الجريمة، ولا يسعني هنا إلا أن أنظر إلى الثلث الباقي، الذي رفض الامتثال لأوامر من هذا النوع، على أنه الجانب المضيء من العالم، والمسئول عن خلاصه.

وفي عام 1971 قامت البحرية الأمريكية بتمويل دراسة شبيهة ستعرف فيما بعد ب. «اختبار سجن ستانفورد» يقودها الدكتور فيليب زيمباردو. تم الإعلان عن التجربة في الجرائد للحصول على مشاركين مقابل 15$ يوميًا للمشاركة في تجربة (محاكاة لسجن) مدتها أسبوعين.

استجاب سبعون شخصًا للإعلان، اختير منهم أربعة وعشرين كانوا الأكثر ملائمة من حيث الاستقرار النفسي والصحة البدنية. وكانوا جميعهم من البيض، الذكور، ومن الطبقة الوسطى. ثم قسّمت العينة عشوائيًا إلى مجموعتين متساويتين من مساجين وحرّاس، حيث استلم الحرّاس عصي، وبزّات عسكرية، ونظارات عاكسة لتجنب التواصل البصري مع المساجين.

على عكس المساجين تمتع الحراس بدوام جزئي، حيث كان بإمكانهم العودة إلى بيوتهم بعد انتهاء فترة العمل، ولكن عددًا منهم صار يتطوع لساعات إضافية في الحراسة رغم كونها من دون أجر. في المقابل، كان المساجين يلبسون رداءً فضفاضًا من دون ملابس داخلية، وقد رُمز إلى كل سجينٍ برقم بدلا من اسمه، وخيطت الأرقام على ملابسهم، وكان عليهم أن يعتمروا قبعات ضيقة من النايلون لتبدوا رؤوسهم كما لو أنها حليقة تمامًا. كما وضعت سلسلة صغيرة عند الكاحل كمنبه دائم على أنهم مسجونون ومضطهدون.

أكدت تجربة «اختبار سجن ستانفورد» ما توصل إليه ستنالي ميلغرام في 1963، حيث تم تقمّص الأدوار تمامًا، وتعرّضت عينة السجناء إلى

صنوف الممارسات السادية، وهو الأمر الذي أدى إلى إلغاء التجربة بعد ستة أيام، في حين كان من المفترض استمرارها لأسبوعين، كما تعرّض أغلب المساجين إلى اضطرابات عاطفية وصدمة من التجربة.

مثل تجربة ستانلي ميلغرام، يعتبر هذا الاختبار شاهدًا على القابلية العالية للطاعة التي يبديها الناس لدى تعرضهم لنظام أيديولوجي يحظى بدعم اجتماعي ومؤسساتي؛ إذا كان الرأي العام، لا يجد غضاضةً في التعذيب فالأرجح أن كثيرين منا سيجدون أنفسهم، يومًا ما، إما جلادين أو ضحايا، قتلة أو قتلى.

يقول الروائي ج. م. كوتزي: «الجريمة الكامنة بداخلنا ينبغي إنزالها على أنفسنا وليس على آخرين». وتبدو هذه العبارة ممعنة المازوشية كما لو أنها الاقتراح الوحيد الذي يمكن لكاتب برهافة كوتزي أن يوفره؛ إذا كان لا بد من الأذى، فلتكن ضحية نفسك وليس الآخر. أتساءل ما الفرق؟ وما الذي سيوقفُ عجلة العنف المحترقة وهي تتدحرج على أرواحنا؟ كيف سنتخلّص من الجريمة الكامنة بداخلنا؟ قدرتنا على الإيذاء ورغبتنا في إيلام الآخر وتفريغه من إنسانيته؟ وإذا كان ثلثا البشر قابلين لتنفيذ أوامر تتضمن التعذيب، فكيف نستنكر وجود معتقلات مثل أبو غريب وغوانتنامو وأوشفيتز، وكيف نتعجب من حدوث مجازر مثل صبرا وشاتيلا وتل الزعتر ومذابح الأرمن وغيرها.

الآن، وقد عرفنا بأن الجريمة تتربّص بنا من الداخل، لم نعد نملكُ ترف أن نندهش ونستنكر القتل والدمار الذي نتسبّب به كبشر. فالأمر يبدو منطقيًا

جدًا ومتّسقًا مع إنسانيتنا. يبقى علينا الآن أن نعرف؛ هذا الوحش القابع فينا، كيف نروّضه؟

الجندي الأمريكي المسكين

كنتُ مشغولة بتنسيق مزرعتي الافتراضية على الآيباد؛ أحلب أبقارها وأقطف تفاحها وأطعمُ دجاجها، عندما وصلتني رسالة تقول: «إن طالب يزداد قوة، تعال الآن وأوقفه». طبعًا، أدهشني أن أقرأ هذا الاسم العربي «طالب» بحروفٍ إنجليزية، فضغطتُ على الرابط ليأخذني إلى هذه اللعبة التي يلعب بها ولدي ذي الستة أعوام. انتقلت الشاشة إلى هناك، ووجدتُ نفسي في قلبِ معركة تشتعلُ، على ما يبدو، في العراق، وسط كثيرٍ من الدكاكينِ ومحلات الحلاقة، بلافتاتٍ مكتوبة بعربية سليمة، وعلى بعد أمتارٍ قليلة من مسجدٍ مقصوف ومثقوب الجدران، تكادُ مآذنه تسقط على رؤوس الناس.

كانت واقعية الصورة مخيفة ومقنعة إلى درجةٍ أزعجتني، لقد كنتُ فعلاً هناك، في العراق الرازح تحت القبضة الأمريكية القاهرة، وكانت الجدران مخرّمة وملطخة بالدماء، وكنت في مواجهة مسلحة مع من يفترض أنهم «إرهابيون»، ثم طُلبَ مني أن أختار السلاح الذي «أرتاحُ له أكثر. قررتُ أن أجاري اللعبة، فانتقلت الشاشة بي إلى قائمة من الرشاشاتِ، التي أجزم بأن كتفي سينخلع لو

حملتها يومًا، ولكلٍ منها قائمة من المواصفات التي لا أفهمُ من تفاصيلها شيئًا. كان من الصعبَ عليّ أن أفاضل بين أدوات القتل المطروحة أمامي بمنتهى المجانية والعادية، فقررتُ، بطفوليةٍ متناهية، أنّ السلاح الأكبر هو الأقوى.

أعادوني إلى المعركة، والرشاش في يدي، وطلبوا مني أن أقتل المسلحين الذين يحاصرونني؛ أنا الجندي الأمريكي المسكين الذي جاء إلى هذه البلاد في سلامٍ ومن دون مصلحة! أنا الجندي الأمريكي المسكين الذي جاءَ ليعذب شعبًا معذبًا، ولكن ليس بيد النظام الشمولي الصدامي، وإنما باليد الفولاذية للديموقراطية الأمريكية. أنا الجندي الأمريكي المسكين الذي جاء ليوفر الحليب والسيريلاك والبامبرز لأطفال العراق، فإذا به يقتل نصف مليون منهم، ومادلين أولبرايت تؤكد لنا بأن الأمر يستحقّ موتهم. أنا الجندي الأمريكي المسكين الذي جاء ليعلم الناس الديموقراطية والحرية فدشّن معتقل أبو غريب للدروس الخصوصية، أنا الجندي الأمريكي المسكين الذي ترك في الوطن أمه وخليلته لكي يوفر للشعب المنكوب مزيدا من أفلام هوليوود وبناطيل الجينز وقصّات المارينز.

نعم، أنا الجندي المسكين، الأمريكي الطيب، الذي لا يقدر الناس فضائله ولا أهمية مساهماته في انتشال العالم من الحربِ والدمار والوحشية، وأنا محاصر الآن بين عشرات العراقيين المسلحين، وتصفهم الأوامر التي تصلني بأنهم إرهابيون، طائفيون ومسلحون خطرون ينبغي قتلهم وتصفيتهم،

ينبغي إنقاذ العالم منهم، وقد كنتُ أرزح تحت وابلٍ من الرصاص حتى خيّل إليّ، أن أختبئ تحت الطاولة وأنا ألعب بهذه اللعبة اللعينة! استجمعتُ شتات نفسي، وتذكرتُ بأنني أنا؛ امرأة كويتية، أم، وكاتبة، وأن هذا السلاح الوهمي الذي أحس بثقله في يدي وفي قلبي، كان طوال الوقت، ومن دون أن أنتبه، بيدِ ولدي ذي الستة أعوام. لقد كان ولدي – طوال الفترة الماضية – يقاتل أشخاصًا يفترض أنهم إخوته. لقد كان ولدي يرتدي ثياب الجيش الأمريكي، وينطلق في مهمة لقتل «طالب» العراقي. هل تمزحين معي يا أمريكا؟

بدأ رأسي يغلي وأنا أتملى حقيقة الأمر، إنهم يضعون السلاح في يدك ويصوبون الفوهة إلى رأس أخيك. يقررون، ببساطة، من هو الإرهابي ومن هو المصلح، من هو الطيب ومن هو الشرير؟

شعرت بالدماء تتدفق حارّة في عروقي، أردتُ أن أصرخ، وحذفت اللعبة اللعينة من فوري وأنا أخبر ولدي بأن «ألعاب الشيطانِ» هذه لن تدخل إلى بيتي. وأخبرته، وسط دهشته ولا فهمه، أن الإرهابي لا يحق له أن يحاضر في الإرهاب، وأن الإرهاب كل الإرهاب هو أن تصنع لعبة كهذه، تضع أسلحة كهذه، في يدِ طفل، لكي تتم برمجتهم على قبول القتل وممارسته. وكان بودي أن أقول له أكثر، لولا أنني خفتُ على سنواته الستة من قسوة المعرفة، فسكتُّ..

ولع القصّ القديم

يقال بأنه يمكن للإنسان أن يصدّق أيّ شيءٍ إذا وضع في قصّةٍ جيدة. في الأفلام الأمريكية التي تدور في قاعات المحاكم، يتكرّر هذا السطر مرارًا؛ المحامي الذي يفوز هو المحامي الذي يأتي بالقصّة الأفضل. كثيرًا ما ردّدتُ، متعجّبة، بأنني أستطيع أن أصدّق ماركيز، إذا ما جعل إحدى شخصياته تطير، وأكذّب نيوتن وقوانين الجاذبية. تستهلّ إيزابيل الليندي كلمتها الشهيرة على منصّة «تيد» بحكمة يهودية تسأل؛ ما هو الأصدق من الصدق؟ الجواب: القصّة. القصة تجيء في مرتبة أكثر حقيقية من الحقيقة ذاتها، لأنّ القصة كائن إسفنجي، يمتصّ العالم والإنسان وأسئلته ورعبه، ورغم أنها مليئة بالأكاذيب إلا أنها تكشفُ جوهرنا الإنساني أكثر من أي شكل فني وعلمي آخر.

في كتب الفلسفة والفكر نحنُ نقرأ عن الفكرة. في القصص والروايات، نحن نكون الفكرة. نحن نحتاج إلى القصة والرواية كما نحتاج إلى أدوية السرطان والمدارس الجيدة. لأننا يجب ألا نكتفي بتوليد الأفكار، بل بموضعتها

في تجربة وجودية تلامسنا عميقًا. إننا بحاجة لأن نعيش الأفكار حتى «نختبرها» ونفهم ذواتنا أكثر. تقرأ الجريمة والعقاب وتشعر بأنك قاتل، وتحترق طوال ألف صفحة مع راسكولنيكوف وعذابات ضميره. تقرأ بؤساء هوغو وترى الكذب بصفته البوابة الوحيدة للفضيلة. أين الحقيقة إذن؟ وكيف أستطيع أن أحكم على راسكولنيكوف وجان فلجان؟ يقول غسان كنفاني «إنهم يحكمون عليك لأنهم لا يعرفونك»، ومن خلال القصة أنت تعرف الآخر وتكفُّ عن إطلاق الأحكام. أنت تتلوث بالحياة على نحوٍ لا يمكن إصلاحه.

يقول كونديرا بأن الرواية اللا أخلاقية هي الرواية التي لا تكشف جزءًا جديدًا من الوجود. وعليه من الصعب عليّ جدًا أن أتفق مع الرأي الذي يقول بأنّ كل المهن الأخرى (منذ السبّاك وحتى جرّاح الأعصاب) أكثر أهمية من مهنة الكتابة. حتى لو بدر هذا الرأي من كاتبٍ أحبه، مثل بول أوستر.

في روايته «لعبة المغزل» يقوم الروائي الإرتري حجي جابر بغزل قصة، ثم نقضها وإعادة غزلها بقصة أخرى، فيما يشبه اللعبة الجدلية بين الفتاة وجدّتها، كلّ منهما تحاول أن تنفذ من تلك الفرج الكاذبة، المثالية، لتحويل الحكاية إلى شكلٍ أكثر حقيقية وصدقًا. الجميل بالنسبة لي في هذه اللعبة هو ما يحدث في رأسك أثناء القراءة. فأنت تصدّق القصة الأصلية ثم تصدّق نقيضها، ثمّ تصدق نقيض النقيض وهكذا. لماذا؟ لأن القصة هي الشيء «الأصدق من الصدق» نفسه. في هذه الرواية تكتشف قابليتك كقارئ إلى تصديق أي شيء، إذا ما وضع في قالبٍ حكائي متقن.

إنها لعبة مدوّخة وتكشف ولعنا بالحكايا. ولع أجدادنا الذين يتسامرون حول النار ويخترعون أصواتًا ويرسمون بشرًا وحيوانات على الجدران، ولعٌ تحمله في داخلك عابرًا أزمانًا طويلة، سنوات بالآلاف، لأجل أن تنفذ من بوابة القصة.. إلى حقيقتك الخاصّة.

هل يجب أن نتّفق في تفسيرنا للأمور؟

في فيلم «سماء الفانيلا» تقضي كاميرون دياز ليلة من «الغراميات المرحة « مع توم كروز، يعيش فيها الاثنان انسجامًا جسديًا فارقًا ثم ينفصلان.

بعد تلك الليلة بليالٍ، يختلف الطرفان في تفسير ما حدث. كاميرون دياز ترى بأن هذا الانسجام الاستثنائي لا يمكن أن يكون بلا معنى. بصيغة أخرى: لا يمكن أن يكون بلا حب. لا يمكن أن يجد رجل كل هذه الأريحية في صحبة امرأة إلا إذا كانت هي «الشخص الصحيح» له.

توم كروز كان يرى الأمر «كما هو» إن جاز القول. كانت تلك، باختصار شديد، ليلة ممتازة من الغراميات المرحة، وهو لا يحب كاميرون دياز ولا يرى أية «إشارة» فيما حدث بينها وبينه. كان تناغمًا جسديًا جميلًا وحسب.

كل نص، كل حدث، كل منطوق (أو مسكوت عنه) يفرز عددًا لا متناهيًا من التأويلات.

نحن نردّد ذلك ببهجة لا متناهية؛ لأن التأويل عملية إبداعية مثيرة، سواء تعلّق الأمر بفيلم، لوحة، أو كتاب. نحن نرحّب بلا نهائية المعاني المتولدة في رأس المتلقي، ونمعن في الإصرار على ضرورة وجود «البصمة الخاصة» بكل فرد في فهم الأمور.

المفارقة أن الأمر يختلف تمامًا إذا انتقلنا بين العالمين المتوازيين؛ عالم الفن وعالم الواقع، رغم أننا في العالمين نمارس الأمر ذاته؛ التعبير عن أنفسنا، ولكن بأدوات مختلفة، ولأغراض مختلفة.

في العالم الواقعي، أكثر ما يخيفك هو ألا يفهمك أحدهم كما تريد له أن يفهمك. أن يفرط في التأويل، أو أن يذهب أبعد مما رميت، أو أقصر، أو أن يضيع عن فهمك تمامًا. في العالم الواقعي، آخر شيء تريده هو شخص يفرض «بصمته الخاصة» في فهمك، ويستحضر تاريخه وتجاربه وقراءاته من أجل قراءتك أنت.

في عالم الفن، آخر شيء تريده هو شخص يسألك عما قصدته من لوحتك أو قصيدتك أو معزوفتك الموسيقية. تريد ذلك المتلقي الخلاق الذي يفهم فنّك بطريقته وباختياره، وأن يشتبك معه في علاقة تأويلية خلّاقة.

إذا كان الهدف من وراء العمل الفني هو إشراك الآخر في الفهم

والتأويل والقراءة، فإن التواصل في العالم الواقعي يرمي إلى العكس تمامًا؛ السيطرة الكاملة على فهم الآخر.

و السؤال هو، لماذا هذا الاختلاف بين الفن والواقع؟ هل من حقنا أن نكون «خلاقين» و»ابتكاريين» في فهم بعضنا البعض، وما يحدث بيننا من أمور؟ وهل من الضروري أن نتفق في تفسير معنى ما حدث؟ وماذا لو حدث أمر، وكان يعني لطرف أكثر مما يعني للطرف الآخر؟ هل هذا خطأ أحد، أم أنها طبيعة الأشياء؟

عبء العالم

في دورة تدريبية مختصّة في التربية، حضرتها شخصيًا، كان في القاعة ما يقارب العشرين طاولة مستديرة. طاولة واحدة فقط امتلأت بالرّجال. تسعة عشرة طاولة أخرى امتلأت بالنساء. في دورة تدريبية أخرى، تناقش العلاقات الزوجية، وحضرتها شخصيًا أيضًا، كان عدد الرجال هو أربعة، مقابل أكثر من عشرين سيّدة سجلت في الدورة. في ورشة عمل عن آليات التفكير الفعّال، كان هناك رجلان وما يقارب الست عشرة امرأة. في ورشة عمل عن مفاتيح التأويل، كان عدد الرجال في اليوم الأول يقارب الثلث (وهو الأمر المفرح)، وفي اليوم الثاني: السُدس. (يا لخيبة الأمل).

هذه المقالة لا تهدف للتصفيق والتهليل للنساء؛ لأنهن على ما يبدو أكثر وعيًا بضرورة ترميم أي نقص معرفي وثقافي ومهاراتي. نعم، هذه المقالة لم تكتب للانتصار للنساء. فالإنسان الذي يهدف إلى الارتقاء بأدواته ومعرفته وثقافته قد انتصر لنفسهِ أصلاً، رجلا كان أو امرأة. ولكنني أتساءل إن كان من حقي أن أخصّص مقالتي المتواضعة هذه للتعبير عن مخاوفي.

الأمور لا تبشر بخير طالما أنك - عزيزي الرجل - تعتقد أن «كل شي تمام» إلى درجة التخلي عن دورك؛ لأن أكتافنا نحن النساء قد تآكلت وتيبست وتخشبت من فرطِ العبءِ وما زلنا ننتظر منك أن تخرج من أريكتك المريحة وتجرب أن تتساءل عما يمكنك فعله لأجل ابنك الذي ازدادت عصبيته، أو ابنتك التي تعاني من التبوّل اللاإرادي وقد أتمت سنواتها الثمانية، أو زوجتك التي تفرطُ في الأكل وتترهّل لأنها طريقتها الوحيدة في إخبارك بأنها بائسة.

عبءُ العالم ثقيل، وهو أثقل من أن تحملهُ المرأة وحيدةً، ويبدو أن هذا هو ما يحدثُ منذ سنواتٍ طويلة. في إحدى الدورات قرر الدكتور المحاضر أن يقدم شكرًا خاصًا للرجال الأربعة الذي حضروا لأنهم «استثنائيون» ويعون المشكلة «كالنساء.» حدثنا المدرّب، وكله دهشة، بأنه في زيارة للدوحة أقام محاضرة حضر نصفها رجال. وكان الأمر بالنسبة له خارقًا حتى أنه صفق لهم ودفعهم للتصفيق لأنفسهم، وبالتأكيد شاركت النساء بالتصفيق وهن يتبادلن الابتسام لأن هذا الشيء الخارق هو ما يفعلنه على الدوام باستثناء أنه يبدو منطقيا ومطلوبًا وغير خارق.

لا أحد يصفق للمرأة عندما تنوء بهذا العبء. فهذا العبء أصلاً لها وحدها. يعتقد الجميع بأن هذا متوقع من المرأة، ومن أجل تسويغ كل هذا العبء تستخدم كلمات جائرة وغير متسقة مثل الطبيعة والفطرة. يقول المدرّب - وأختلف معه تمامًا - بأن المرأة بطبيعتها ترغب بالتطوير. يحتاج السيد المدرّب أن يعي بأن هذه ثقافة وليست طبيعة، أي أن الأمر فيه نوعٌ من

المبادرة والتضحية. لماذا لم تكن هذه جزءًا من ثقافة الرجل؟ لأنه يعتقد بأن المرأة تقومُ باللازم؟ لأنه أصلاً لا يتواصل مع أطفاله وزوجته بعمق ليعي حجم المشاكل التي تحاصره؟ لأنه يفضل الدخول في دورة تدريبية عن «آليات المحاسبة الحديثة» و»صياغة العقود» وأي شيء يدفعه بالسلم الوظيفي إلى أعلى، تاركا كل السلالم الأخرى لكي تصعدها المرأة وحيدة؟

لا، لا .. هذه المقالة غير مخصصة للتصفيق للنساء! وإن بدت كذلك.

بطولة الوهم

نحن نُسبِغُ صبغةً بطوليّة على كل أفعال التضحية، ولكن الحقيقة أنه ليست كلّ التضحيات بطولات، وليست كلها جديرة بامتناننا وإعجابنا، بل أتجاسر وأزعم بأن بعض التضحيات هي جرائم، أن أصحابها خونة، خانوا أنفسهم وخانوا العالم بأسره، وأنا أكتبُ اليوم لكي أعبّر لهؤلاء عن «عدم امتناني» وعن سخطي أيضًا.

إنني، كأم، أعرفُ أن تضحيتي بوقتي وجهدي وعافيتي من أجل أبنائي هو من صميم أمومتي، كما أنني كإنسان، لا يسعني إلا أن أشعر بعظمة تضحيات الشهداء الذين قدموا أرواحهم فداءً للأرض والإنسان والحرية في كل مكان، لننتهِ من هذا الآن، فليس حديثي عن هذا النوع من التضحيات، بل عن النوع الآخر، عن التضحيات التي تجعل الإنسان يقدم على بتر بعضِه، أو قتل جزء منه، أو التنازل عن أحلامه، أو خنق ندائه الداخلي، أو التنكر لجوهره، من أجل الآخرين.

قبل أن نمتدح جماليات التضحيات وعظمة المضحّين، نحتاج أن نمعن

في فحصِ تلك التضحيات، إذ غالبًا ما يُطلق اسم «التضحية» على جريمة تواطؤ الإنسان ضدّ نفسه، ويؤلمني أن أعترف بأن الطرف المطالب غالبًا بتقديم تلك «التنازلات» سيئة السمعة، تحت غطاء التضحية والبطولة، هو المرأة.

نمعنُ نحن النساء في التنكر لأحلامنا، ونفعلُ ذلك بطيبِ نفس في الغالبِ لأننا اعتدنا الأمر، وتمت برمجتنا عليهِ تقريبًا، فالعرفُ (والعرف من مصادر التشريع!) يقول إن المرأة يجب أن تكون الطرف المضحّي. المضحي بأي شيء يا سيد عُرف؟ بذاتها طبعًا! وثمة فرق بين التضحية بالذات والتضحية بالنفس! العرف لا يراوغ ولا يجامل، إنه لا يخافُ من الأجوبة القبيحة، ويتلوها على مسامعنا بمنتهى الأريحية، فالعبرة بالمقاصد والمعاني، وليست بالألفاظ والمباني. العرفُ يقول؛ يجب على المرأة أن تضحي بذاتها، بطموحاتها الصغيرة، بهواياتها التي قد تكبر وتنضج وتحلق بها إلى فضاءٍ ما، بوظيفة أحلامها أيضًا، يجب على المرأة أن ترزح تحت الحذاء الثقيل للتضحية المزعومة، بمعنى آخر: يجب أن تستسلم. تستسلم لأي شيء؟ للنظام يا صغيرتي (الكلام هنا للسيد عرف)، النظام الهرميّ الذي يمايز بين البشر ويحولهم إلى شرائح وأقسام، ويهب لبعضهم الضوء ولبعضهم الغياب، النظام الذي يقسم العالم إلى متن وهامش، سائد ومتنحٍ، أنثى وذكر، أبيض وأسود، بدوي وحضري، سني وشيعي، مسلم ومسيحي، النظام الذي يفرّق ليسود أصحاب المصلحة. لماذا يا سيّد عرف؟ لكي تبقى الأمور على ما هي عليه، لكي تبقى الأشياء قيد السيطرة، العرفُ أيضًا يقول: «إنا وجدنا آباءنا على أمّةٍ

وإنا على آثارهم مهتدون». هذه هي وظيفة العُرف، إعادة ولادة الماضي! ولسنا هنا بصدد مساءلة السيد عُرف المحترم، الذي كان شفافًا بما يكفي لكي يجيب عن كل أسئلتنا، وإنما نحنُ بصدد تسمية الأشياء بأسمائها، إذ إن التضحية بالأحلام، في رأيي، هي أسوأ أنواع التضحيات، وهي ليست تضحية بقدر ما هي فعل خنوع، لأن التضحية ينبغي أن تجيء طوعًا ومصحوبة بإحساسٍ عارمٍ بالرضى، وإذا تم تقديمها تماشيًا مع افتراضات المجتمع ورضوخًا لضغوط خارجية فهي ليست تضحية، ليست فعل حب، بل أنانية محضة، محاولة لإنقاذ الصورة الاجتماعية للذات مقابل قتلها، هل يوجد ما هو أكثر إزعاجًا من شخص يبتزك بتضحياته، ويردد عليك «ياما عطيت وياما ضحيت» ويطالبك بأن تشعر بالامتنان؛ لأنه يعيش حياة هزيلة وفارغة من المعنى؟

نعم منتهى الأنانية أن تتغاضى عن أحلامك وإمكانياتك وحقيقتك بسبب الآخرين، من أجل إنقاذ نفسك اجتماعيًا. لماذا؟ لأن العالم يحتاج أحلامك، ويعوّل عليها، وأنت .. نعم أنت، مدينٌ له بها.

أنت وحدك على حق

تخيّل بأنك في غرفة. ليست غرفة عاديّة. بل غرفة مميزة جدًا. فارغة تقريبًا، إلا من شاشة عرض كبيرة ومكبّرات صوت ضخمة. شاشة العرض لا تظهر عليها إلا عبارة واحدة، العبارة نفسها التي تردّدها مكبرات الصوت طوال الوقت:

«أنت على حق».

«أنت على حق».

«أنت على حق».

تخيّل أنك قضيت عمرك كله في هذه الغرفة، الغرفة التي تخبرك بأنك على حق. تخيّل أنك تسمع بأنك على حق أربعين مرة في الدقيقة. تخيّل بأنك لا تسمع إلا الشيء نفسه، أنك على حق. بعد سنواتٍ تغيّرت العبارة قليلاً، ولكن حتى أنت لم تنتبه إلى التغيير، وظننت أن العبارة منذ البدء كانت هكذا:

«أنت وحدك على حق».

«أنت وحدك على حق».

«أنت وحدك على حق».

وربما لم تكن إضافة ذات مغزى، فما معنى أن تكون وحدك على حق، وأنت أصلا.. وحدك؟ في غرفة مخصّصة من أجل حقنك بفكرة واحدة، فكرة وحيدة: أنك وحدك على حق؟ تخيّل الآن أن بابَ الغرفة قد فُتح. أنه قد تسنّى لك أن تخرج من الغرفة وتلتقي بالعالم. بعد أن قضيت سنوات كثيرة تسمع وترى الشيء ذاته: أنك وحدك على حق. أنت لم تعد وحدك، امتلأ الوجود بالآخرين.

ستدخل إلى عالم الآخرين وأنت مدجّج بفكرةٍ واحدة: أنك وحدك على حق. ستسخر منهم، لأنهم ليسوا على حق. ستجادلهم طويلا بأن الحق إلى جانبك. ستحاولُ أحيانًا أن تقنعهم بالانضمام إلى الحق الموجود في غرفتك، في شاشة التلفزيون ومكبرات الصوت التي ردّدت عليك طوال حياتك أنك على حق.

تخيّل الآن أنك بمرور الوقت قد بدأت تدرك أن كل إنسان على وجهِ الأرض، من بين سبعة مليارات نسمة، قد جاء من غرفةٍ شبيهة. غرفة كانت تردّد عليه طوال الوقت أنه وحده على حق.

سترتبك. ستبدأ في التساؤل. من أين يجيء الحق؟ هل يجيء من الغرف الخاصّة؟ من شاشة التلفزيون ومكبّرات الصوت؟ وإذا كان الآخر أيضًا،

ويحسب غرفته، على حق، فهل يجعلك ذلك على باطل، أم يجعلكما على حقٍ معا، أم يجعل الجميع على باطل؟ ثم ستبدأ في طرحٍ أسئلة من نوع آخر، أسئلة مخيفة، على شاكلة: ما هو الحق؟ هل الحقّ موجود؟ هل الحق متعدّد أم واحد؟

ستفكر أن في الأمر مؤامرة. أن الغرف قد تآمرت ضد الإنسان. أن شاشات التلفزيون عميلة للباطل. ستثور، ستطالب بمعرفة الحقيقة، أين الحق والحق مع من؟ ستشعر بالغبن، بأنك قد خدعت طوال عُمرك، بسبب الغرفة التي أخبرتك أنك على حق. ستشتاق للحق الذي لم تعد تملكه. ستبدأ في البحث عن الحق. ستدخل الغرف الكثيرة التي جاء منها ملايين البشر، غرفة بعد غرفة، ستبحث عن قطع الحق المتناثرة كالشظايا، سوف تبحث عن الحق الذي ضاع منك قبل أن تتعرف عليه.

أما بخصوص غرفتك القديمة، ذات الشاشة العملاقة ومكبّرات الصوت، فأنت تعرف الآن، بأن أحدًا لم ينجُ من تلك الغرفة على الإطلاق.

كلنا، بشكلٍ أو بآخر، نجيء من تلك الغرفة..

كلنا.

الدين الجديد

تعال أخبر الولد الأفريقي الذي يكدحُ طوال النهار من أجل العثور على الماس الدامي نظير دولار في الشهر، بأنه جلب بؤسه لنفسه بسبب أفكاره السلبية. تعال أخبر المعاق، المغولي، المتوحد، المشلول، المعدم، المريض، أن إعاقته هي بسببه. تعال أخبر الطفل السوري أنه اجتذب موته في مجزرة. تعال أخبر الضحايا بأنهم ليسوا ضحايا.

لم أتخذ قط ذلك الموقف الذي يرفض قانون الجذب وما يعرف ب. «علم الطاقة» بداعي تعارضه مع الدين. في الحقيقة، كنتُ أجلس وأنتظر ما سيحدث، فإذا كان الأول علما، فالمفترض أن يبرهن على صحته، وأن تقبل به الأديان عاجلا أو آجلا، ولكنه مع الوقت اتخذ شكلا غير علمي إلى درجة دينية، ولا أقصد هنا الطقوس والعادات وحسب، بل أقصد الأيديولوجيا الشمولية التي تجنح إلى تفسير كل شيء، وتفشل حتما، لأنه لا يمكن تفسير كل شيء! لا يمكن تفسير أن يولد طفل ويعيش لخمسة أشهر ثم يموت، أعمى وعاجزا عن التنفس برئة تمتلئ بالسوائل. لا يمكن تفسير أن تصاب

طفلة السنوات السبع بالسرطان بسبب أفكارها السلبية، لا يمكن تفسير وجود أشخاص لم يأكلوا شيئا منذ أسابيع بسبب أفكارهم السلبية. من الوقاحة أن تأخذ هذا الموقف، أن تدين الضحية البريئة على كونها ضحية بريئة.

إن النزوع إلى تفسير كل شيء، من ثقب إبرة، كما تفعل كل الأيديولوجيات الشمولية والأديان العاجزة عن التطور والمواكبة، هو ما نتلمس آثاره اليوم فيما يسمى ب. «علم الطاقة». فإذا كان كل شيءٍ هو طاقة، وكل قدر هو مجتذب، فلا بد وأن هؤلاء كانوا «أشخاصا سلبيين» بهذا المعنى، جلبوا الأمر على أنفسهم، ولا أعرف كيف أسمي هذا الموقف إلا «بالإنكار»، لأننا نتنكر للضحايا، نتنصل من مسئوليتنا إزاء أن نجعل العالم مكانا أفضل، وليس من خلال أن تردد «أنا حلو، أنا قوي، أنا طويل وأهبل.. «، بل أن تنهض وتفعل شيئا. لقد فهمنا الإيجابية بشكلٍ سلبي. فبدلا من أن تعني «أن تتصرّف بهذا الشأن» أنت تبتسم كالأحمق وسط المجزرة، الناس يحملون أشلاء الضحايا وأنت تمتدح جمال الوردة.

أنا لا أعتقد بوجود تفسير مطلق للشر، وأعرف أن الشر في كثير من الأحيان، وربما في أكثرها، مصدرهُ بشري، ولكن كيف لي أن أقول الشيء نفسه عن الطفل الذي ولد ليموت بعد ثلاثة أيام؟ وقد يجادل مجادل بأن «أمه» هي التي جلبت عليه الشر. ولكن متى أصبحنا قضاة هكذا، نحاكم الناس من دون أن نعرفهم حتى؟ وعلى افتراض أن الأم هي التي أصابت الولد «بشحنة هائلة من السلبية أودت بحياته» فما ذنبه؟ كيف يتفق ذلك مع فكرة

أن يكون الإنسان سيد مصيره من خلال أن يكون سيّد أفكاره؟

دعنا نتفق بأن هناك طاقة تضيفها الابتسامة، التحف، الألوان، الأحجار الكريمة. إنها أشياء جميلة وهي بهذا المعنى تضخ طاقة جميلة في المكان والروح، ولكن هذا كل شيء، الأمر يقف عند هذا الحد. يتطلب الأمر أكثر من مجرد كرستالة بيضاء على منضدتك لكي تعيش بشكلٍ واعٍ، مدرك لواقعك، ومن ثم قادر على التصرّف بشأنه.

دمية ميكي ماوس التي أكرهها

أخاف من الأقنعة، والمهرّجين، والوجوه المصمتة.

أظنني، لو ذهبتُ إلى ديزني لاند، فسأكرهُ دمية ميكي ماوس، ونيمو، والأقزام السبعة أيضاً. سأكرهُ كل الشخوص التي أحببتها، وأنا أراها ضاحكة بلا سبب.. سوف أكرهها وأخافها.

عندما بلغتُ الخامسة من عمري كان الوقت قد حان بالنسبة لي لأذهب إلى الروضة. لسوء حظ أمّي، كانت الروضة القريبة من منزلنا تقيمُ احتفالاً بمناسبة بدء العام الدراسي، وكانت دمية ميكي ماوس كبيرة تنتظرنا عند بوابة المدرسة لتقدّم للأطفال الهدايا والحلويات. شعرتُ وقتها بأن ميكي ماوس هذا هو الشيطان، وأن المدرسة هي الجحيم.

صرتُ أبكي وأركلُ وأركضُ في جنباتِ المكان، واضطرت أمي إلى إعادتي إلى البيت، ولم نتكلم عن الموضوع طوال أسبوع، ولم أذهب إلى

المدرسة بالطبع، حتى اضطرت أمي إلى أخذي إلى روضة منطقةٍ أخرى؛ لأنني أوضحتُ لها جيداً بأنني لن أعود إلى ذلك المكان الملعون، إلى دمية ميكي ماوس التي تتربّص بالأطفال الخائفين وتلقي بهم في زنازين مدرسية ملوّنة.

دمية ميكي ماوس ليست هي ميكي ماوس، إنها تبتسمُ دون سبب، الضحك المستمر سمةً شريرة، والأعين التي لا تغمضُ تبدو قادرة على امتصاص روحي والقذف بها إلى دياجير العزلةِ والعذاب. ثمة شيء لا يحتملُ في تلك الدمى، في اليد البلاستيكية التي لا تتحرك فيها الأصابع، ثمة ما يقرف في الرقصة الغبية التي يؤديها «الإنسان» المختبئ داخل الدمية، ثمة ما يزعجُ في الوجه المتجمّد على ضحكة أبدية كأنّها عذاب جهنم.

في السنواتِ الأخيرة، عندما كنتُ أصادف إحدى هذه الدمى في السوق، وأرى أنني أورثتُ أولادي نفس الإحساس بالخوفِ والقرف، أجد نفسي أحمل ولدي وآخذه إلى الدمية وأجعله يطلّ على الشخص في الداخل من فتحةِ الفم؛ هل رأيت؟ إنها كذبة، إنه مجرد شخص مختبئ.

ولكن لماذا الآن؟ ما الذي يجعلني أتذكّر ميكي ماوس الذي أفزعني وأنا طفلة السنوات الخمس؟ ولماذا في خضمّ الاحتقانِ السياسي، وانقسامِ العالم على نفسه، لماذا في ربوع الربيع العربي، ووسط الحمى الطائفية والانتخاباتِ البرلمانية، لماذا الآن في هذا الموسم المجنون أتذكّر ميكي ماوس.. دمية ميكي ماوس، وأتمنى – من كلّ قلب – لو أن كل أقنعة العالم كانت بهذا الوضوح؟

أتمنى لو كان زيفهم أكثر صراحة، أتمنى أن أفتح أفواههم وأطلّ في داخلها وأجد ذلك الشخص، الجبان الذي يؤدي الرقصة البلهاء، رقصة الطير الذبيح على أشلاء حقيقته، يحتفلُ بزيفه و»بلاستيكية« وجوده.

مجرّد مرآة

عزيزي الكاتب، أنت متّهم بتشويه الواقع. الواقع في الواقع جميل، وكتابتك تشوّهه. هذا ليس وهمًا، فالعالم بخير، أو هذا ما نريد أن نصدّقه، فنحن نتواطأ في التستّر على القبح الذي تجيء أنت، بكل لؤم، لكي تنكشه برأس قلمك. أيّها الكاتب، أنتَ شخصٌ مزعج. نحنُ لا نحبّك.

فكرة «التشويه» تجيء من الوهم؛ الوهم بأن الحقيقة هي خلاف ما تكتب. ونحن نعشق أوهامنا، نرتاح إليها، نطعمها وندللها حتى تسمن وتترهل وتفيض في جميع الجهات. نحن نؤثر طمأنينة الوهم على قلق الحقيقة الباردة.

لا أحد يحبُّ سماع الحقيقة، ولكن على أحدنا أن يكون ذلك الشخص «الكريه» الذي يمزق حجب الزيف ويجعلنا نرى الأشياء كما هي.

يقولون بأنّك إذا كتبت عن ظاهرة «سلبية» فأنت تُقصي ما دونها من ظواهر إيجابية. يريدون منك أن تتحوّل إلى ماسح ضوئي وأن تكتب عن كلّ

شيءٍ حتى لا تتهم «بالتشويه»، لأن تركيزك على ظاهرة بعينها يجعل المشهد يبدو أسوأ كليةً، وهذا ما نريده، فنحن كمجتمع.. نصرُّ على حقّنا في أن نبدو جميلين، حتى لو كنا، في حقيقة الأمر، أبعد ما نكون عن الجمال.

الاتهامات التي تُكال على الكاتب ب. «تشويه صورة البلد» كلما ارتفع حسّه النقدي تدلُّ على حقيقتنا تمامًا. مجتمع لا يمانع القبح ذاته، بقدر ما يمانع أن يظهر القبح بجلاء.

إذا لم تكن لديكم مشكلة مع الديكتاتوريات، فلماذا يزعجكم أن نكتب عنها؟ إذا لم تكن لديكم مشكلة مع النفاق الديني، فلماذا تتضايقون إذا كتبنا عنه؟ إذا لم تضايقكم الطائفية، فلماذا تضايقكم الكتابة عنها؟ إذا لم تكن لديك مشكلة مع زواج القاصرات، فلماذا تمنعني من الكتابة عن طفلة تموت من فرطِ النزيف وهي ابنة 10 سنوات بعد أن اغتصبها زوجها الخمسيني؟

إذا كان الواقع في ذاته لا يغضبك، ولا يضايقك، فلماذا تنزعج إذا كتبنا عنه؟

- **أيها الكاتب، أنت متّهم بتشويه الواقع.**
- **أيّها القارئ، الواقع بشع وليس مشوّهًا.**
- **أيّها الكاتب، جمِّل الواقع من أجلي.**

- **أيّها القارئ، لا أستطيع. فأنا مجرّد مرآة.**

صدر للمؤلّفة

* ارتطامٌ .. لم يسمع له دوي (رواية) عن دار المدى، سوريا، 2004، وعن دار آفاق للنشر والتوزيع (الكويت) 2013.

* سعار (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005.

* عروس المطر (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005.

* تحت أقدام الأمهات (رواية) عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2009.

* قيس وليلى والذئب (نصوص) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011.

* عائشة تنزل إلى العالم السفلي (رواية) عن الدار العربية للعلوم

ناشرون، بيروت، 2012.

*** كبرتُ ونسيتُ أن أنسى (رواية) عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2013.**

بين صوتين؛ فنّيات كتابة الحوار الروائي. عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2014.

خرائط التيه (رواية) عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2015.

أسفل الشجرة أعلى التلة (قصة مصوّرة للأطفال)، عن دار أروى العربية للنشر، جدة 2016.